

معهد البحوث والدراسات العربية

العلاقات السياسية والحضارية
بين
العرب واليهود
في العصور القديمة والإسلامية

تأليف
دكتور علي حسني الخربوطلي

١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م









معهد البحوث والدراسات العربية

العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود في العصور القديمة والإسلامية

تأليف

دكتور علي حسني الخربوطلي

١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تحفل المكتبة العربية بالعديد من الأبحاث والكتب التي تتناول القضية الفلسطينية . ولكن معظم هذه المؤلفات تبدأ دراسة القضية والظروف المحيطة بها ببداية ظهور فكرة الوطن القومي لليهود فى فلسطين فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تعود هذه المؤلفات بالقضية إلى مطلع التاريخ الحديث . ولكن معظم هذه الكتب تكاد تهمل دراسة أصول وجذور المشكلة فى العصور القديمة والوسطى .

والحقيقة أن العلاقات بين العرب واليهود تعود إلى أقدم العصور ، وهى علاقات سياسية وحضارية ، وقد قام صراع طويل بين الفريقين على مر العصور التاريخية ، أثر فى الأحداث السياسية العالمية . إلى جانب دوره الحضارى وأثره فى الحياة الفكرية .

ولذا فنحن نرى أن القضية الفلسطينية ، التى هى مثار اهتمام العالم الآن لايمكن فهمها واستيعابها على حقيقتها ، إلا بالعودة إلى الماضى ، البعيد والقريب ، للكشف عن الجذور والأصول ، ولدراسة تطور العلاقات بين العرب واليهود عبر العصور التاريخية المختلفة ، سواء فى العصر المسيحى أو العصر الإسلامى ، للوقوف على موقف اليهود من المسيحية ودولها وحضاراتها ، وموقف اليهود من العالم العربى الإسلامى . وقد تنقلنا بين أرجاء العالمين القديم والوسيط لدراسة تطور العلاقات بين العرب واليهود

فى المجالين السياسى والحضارى ، وعقدنا دراسات مقارنة بين أحوال اليهود فى العالم العربى الإسلامى وأحوالهم فى القارة الأوروبية .

إن التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، نعيش اليوم فى حلقة منها ،والتاريخ هو ذاكرة كل أمة ، ومرآة أحداثها وأمجادها وحضارتها . ودراسة الماضى هى أساس دراسة الحاضر ، وهى الطريق إلى الكشف عن المستقبل . ولذا رأينا أن نربط الحاضر بالماضى ، لينير لنا طريق المستقبل .

وإنى أشكر القائمين على معهد البحوث والدراسات العربية العالية لدعوتهم لى لإلقاء هذه المحاضرات ،كما أشكر لهم أيضاً اهتمامهم بطبع هذه المحاضرات ونشرها .

وأدعو الله أن يوفقنا جميعا إلى خدمة القضايا العربية عامة ، والقضية الفلسطينية خاصة ، والله عزّ وجل ولىّ التوفيق والنصر ؟

دكتور على حسنى الخربوطلى

١ – اليهود فى الشرق قبل ظهور المسيحية

الفوضى الدينية قبل ظهور اليهودية

استقرت الحضارة الفارسية ، وبدأت فى الإنتشار فى أرجاء الشرق ، وقدم الفرس للبشرية الكثير فى ميادين العلوم والآداب والفنون . وكان دين الدولة الفارسية الرسمى حينئذ (الزرادشتية) . وهى إحدى عقائد المجوسية ، وهى تقوم على أساس وجود إلهين ، إله للخير يرمزون له بالنور وإله للشر يرمزون له بالظلمة ، كما انتشرت بين الفرس عقائد مجوسية أخرى ، أشهرها المانوية والمزدكية ، وهى تشترك فى عقيدة وجود إلهين ، ولكنها تختلف فى كثير من التفاصيل . فالمانوية تنظر إلى الحيـــاة نظرة تشاؤمية ، وتعتبر وجود الإنسان على سطح الأرض جناية عليه ، وتتعجل فناءه ، وتدعو إلى الرهبنة والصوم والزهد . أما المزدكية فهى تدعو إلى نوع من الفوضوية الإباحية ، فهى تدعو إلى أن يتساوى جميع الناس فى ملكية المال والنساء . ولذا حاربت الدولة الفارسية عقيدتى المانوية والمزدكية .

وإذا تركنا بلاد الفرس وانتقلنا إلى سائر أقطار القارة الآسيوية ، فإننا نجد فى الهند والصين واليابان والتركستان وغيرها ، أدياناً تقترب من ديانة الفرس . ففى الهند سادت الديانات البرهمية والبوذية . وفى الصين سادت الكونغوشيوسية ، بينما عبد أهالى التركستان الذئب الأبيض ، بينما عبد أهالى اليابان الشمس . وهى كلها عقائد غير سماوية .

أما القارة الإفريقية ، فكانت غارقة فى فوضى دينية واسعة النطاق ، فانتشرت أديان ليس لها شرائع أو قواعد أو معابد .

وفى وسط هذه الفوضى الدينية الشاملة ، ظهرت الديانة اليهودية فى غرب آسيا تحاول نشر تعاليمها ونفوذها فى الشرقين الأدنى والأوسط .

أصل اليهود

يصوّر المؤرخون بداية ظهور اليهود على مسرح التاريخ العالمى بأنهم كانوا قبيلة من البدو ، نزحت عن شبه الجزيرة العربية ، فى موجة من موجات الهجرة المتعددة التى حفظ التاريخ لنا أخبارها ، فقد كانت الجزيرة العربية ، تمر بفترات مناخية تتميز بالقحط وقلة الأمطار ، بحيث لم تعد الصحارى تمدّ البدو وحيواناتهم بحاجاتهم ، فينزحون مهاجرين إلى المناطق الخصبة فى الشمال ، فى العراق والشام ومصر ، وتبدأ هذه الموجات فى الاستقرار ، فيتغير المهاجرون وحضارتهم .

كان بنو إسرائيل من الساميين ، أى من العرق الذى كان ينتسب إليه الأشوريون والعرب . ومن الثابت علمياً اليوم أن بلاد العرب الوسطى والشمالية كانت مهد الساميين . ولكن بينما ظل معظم الساميين منتشرين فى جنوب الجزيرة العربية ، هاجر فريق منهم إلى الشمال ، موغلا فى بلاد بابل حيث كان السلطان لحضارة السومريين والأكاديين ، فأقاموا بها فترة من الزمن وتشبعوا بحضارتها ، ثم كثر عددهم فهاجروا من جديد فى أدوار مختلفة ، فتقدّموا نحو الشمال أكثر من قبل ، كما تقدموا نحو الغرب .

والساميون الذين بقوا فى الجزيرة العربية هم أجداد الشعب العربى ، أما الساميون الذين مرّوا فى مواطن الحضارة فى الفرات الأدنى وانتشروا فى آسيا فهم الآشوريون والإسرائيليون[1].

---

(١) جوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٢٤ .

من هذه الموجات النازحة ، كانت الموجة اليهودية ، وكانت بلاد العرب وجهتها وهناك عاشوا فى رعاية الدولة الكلدانية ، واستقرت جماعة منهم فى العراق ، وخرجت جماعة أخرى يتزعمها إبراهيم الخليل نحو الغرب ، فعبروا نهر الفرات ، واستقر بهم المطاف فى المنطقة المحيطة بمدينة حلب ، وأطلق عليهم (العبريين) لقيامهم بعبور نهر الفرات .

ولم تثبت أقامة أجداد بنى إسرائيل فى أراضى مابين النهرين من أحاديثهم التى جاء فيها نبأ خروج إبراهيم من مدينة (أور) فى كلده فقط ، بل ثبتت أيضاً بالآثار التى ظلت باقية فى معتقداتهم وطبائعهم من ديانة السومريين والآكاديين وعاداتهم[1].

يرى معظم علماء الآثار أن إبراهيم عاش فى زمن متوسط بين أوائل القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويجعلونه معاصرا لدولة الرعاة فى مصر ودولة العموريين فى العراق . وكانت عشيرة إبراهيم الخليل صغيرة بالقياس إلى العموريين والرعاة وسائر القبائل التى تحتل بقاع الهلال الخصيب ، ولذا اضطرت إلى الهجرة دائماً . فقد اضطهدتهم القبائل النازلة فى حلب واضطرتهم إلى الاتجاه جنوباً نحو شبه جزيرة سيناء وهناك تفرعت هذه العشيرة إلى فرعين اتجه فرع منها شرقا بقيادة لوط واستقروا على ضفاف البحر الميت ، واستقر الفرع الثانى بقيادة إبراهيم فى بير سبع .

ابراهيم ابو الأنبياء

نستمد معظم معلوماتنا عن إبراهيم من سفر التكوين ، وقد ذكر أنه وُلد فى « أور » الكلدانيين ، وأن نسبه ينتهى إلى سام بن نوح ، فهو إبراهيم

---

(١) المصدر السابق .

بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد ابن سام بن نوح . وذكر سفر التكوين أن تارح ولد إبرام وناحور وحاران وإن حاران ولد لوطا .

ولد إبراهيم بالعراق لأب نجار كان يصنع الأصنام ويبيعهـا لقومه ويعبدونها . فلمّا شبّ إبراهيم ورأى الأصنام يصنعها أبوه ، ثم رأى قومه يعبدونها ، ورأى كيف يخلعون على هذه القطع من الخشب التي مرّت بين يديه ويدى أبيه كلّ تلك القداسة ، ساوره الشك في أمرها . وذهب إبراهيم يوماً سرّاً إلى المعبد ، فحطم الآلهة إلا كبيرها . فقال قومه له : (أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) .

وكان إبراهيم يؤمن أن عبادة الأصنام ضلال ، وأخذ يبحث عن الإله الحقيق ، ظنّه كوكبا ، ثم ظنه القمر ، ثم الشمس ، ثم توصل إلى معرفة الله ، خالق الأرض والكواكب . وجاء في القرآن الكريم (فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهّت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) .

جاء في الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين أن « تارح أخذ أبرام ابنه ولوطا بن حاران ، وسارى[2] ، فخرجوا جميعاً من أور الكلدانيين

---

(١) وهى سارة .

ليذهبوا إلى أرض كنعان ، فأتوا إلى أرض حاران[١] وأقاموا هناك،وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ؛ ومات فى حاران ».

وجاء فى الإصحاح الثانى عشر أن الله سبحانه وتعالى قال لإبراهيم : « إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم . اسمك .... فذهب ابرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط .... وكان ابرام ابن خمس وسبعين سنة حين خرج من حاران ، فأتوا إلى ارض كنعان ومعهم ذخائر وعبيد وماشية ، واختار ابرام سكنه من شكيم[٢] إلى بلوطة مورة ، وفيها الكنعانيون .... ثم والى رحلته إلى الجنوب . وحدثت مجاعة فى الأرض ، فانحدر ابرام إلى مصر ؛ وقال لساراى امرأته ، وهو على مقربة من مصر : إنى علمت إنك امرأة حسنة المنظر ؛ فإذا رآك المصريون[٣] قالوا هذه إمرأته فيقتلونى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك . فلما دخل أبرام مصر ، رأى المصريون أن المرأة حسنه المنظر ؛ ومدحها رؤساء فرعون إليه ؛ فأخذت المرأة إلى بيت فرعون ؛ فصنع إلى إبرام خيراً بسببها وصار له بقر وغنم وحمير وعبيد وإمان وأتن وجمال ».

نزلت بفرعون عدّة كوارث ؛ ورأى فى حلمه أن ساره ليست أخت إبراهيم كما زعم ، بل هى زوجته ، فبعث فرعون يستدعيه وقال : «ماهذا الذى صنعت بى ؟! لماذا لم تخبرنى أنها إمرأتك ؟ لماذا قلت لى هى أختى

---

(١) تقع فى الوقت الحاضر فى شمال العراق بين خابور ونهر الفرات .
(٢) قرب مدينة نابلس الحالية .
(٣) كان فى مصر فى ذلك الوقت ملوك الهكسوس أى الرعاة .

حتى أخذتها لتكون زوجتى ؟ ! » . وأعاد فرعون ساره إلى إبراهيم وأخرجهم جميعا من مصر ، ومنح إبراهيم كثيرا من الهدايا من بينها جارية تدعى هاجر .

ثم يصوّر لنا سفر التكوين الخصام الذى وقع بين إبراهيم وابن أخيه لوط ؛ الذى كان قد أقام فى غور الأردن على ساحل البحر الميت : « وعاد إبرام إلى بيت إيل حيث كانت خيمته قبل انحداره إلى مصر ، ولم تحتمل الأرض إبرام ولوطاً ومن معهما من حاشية وماشية ، واشتجر رعاتهما وحولهم الكنعانيون والفرزيون[1] » .

واتفق إبراهيم وابن أخيه على ألا يختصما وأن يفترقا فى أمان وسلام ، فاتجه لوط شرقا فى الأراضى الأردنية واستقر قرب سدوم ، وبقى إبراهيم فى كنعان حيث استقر فى (حبرون) وهى مدينة الخليل الحالية .

ثم نشبت حرب عنيفة بين الحضر والبدو ، اشتبك فيها ملوك سدوم وعمورة وأدمة وصبويم وبالع ، مع ملوك عيلام وجوييم وشنعار والأسار واشتبك السدميون والأشوريون فى قتال عنيف هلك فيه كثيرون ، ووقع الباقون من السدوميين فى الأسر ، وكان من بين الأسرى لوط وقومه لأنهم حالفوا السدوميين . وغضب إبراهيم لما لحق بابن أخيه وقومة وعزم على إنقاذهم ، فانقض على الأشوريين قرب مدينة (دان) على إحدى شعبتى نهر الأردن ، وأنزل بهم هزيمة عنيفة ، وخلص لوط وقومه من الأسر . ولقيه ملك سدوم فى المكان المسمى بالوادى الملكى واستقبله هناك (ملك سليمى ملكى صادق ، ، ومعنى هذا الإسم « الملك الصديق » ، وهو إسم

---

(١) الفرزيون : قبيلة من الكنعانيين تسكن قرى غير مسورة .

اشتهر به بين الجميع فاختاروه كاهناً لله ، وأصبحت « سليمى » هذه هى المكان الذى عرف بعد ذلك باسم أور سليمى « أورشليم »[1]

جاء فى الإصحاح السادس عشر أن ساره قالت لإبراهيم : « هوذا الرب قد أمسكنى عن الولادة ، فادخل إلى جاريتى لعلى أرزق منها بنين » . واستجاب ابراهيم لطلب زوجته ، فدخل بهاجر وأنجب منها اسماعيل ، وكان عمره حينئذ ست وثمانون سنة .

وذكر الإصحاح السابع عشر أن إبراهيم حينما بلغ التاسعة والتسعين ظهر الرب له وقال : « أنا الله القدير ، سر أمامى وكن عاملا ؛ فاجعل عهدى بينى وبينك ، وأكثرك كثيراً جدا » فخرّ إبرام ساجدا ؛ وتكلم الله معه قائلا : « أما أنا فهو ذا عهـــدى معك ؛ وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد اليوم إبرام . بل يكون اسمك إبراهيم ، لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا . وأجعلك أمماً . ومنك ملوك يخرجون . وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك . فى أجيالهم عهداً أبدياً ، لأكون الهالك ولنسلك من بعدك ، واعطى لك ولنسلك ، من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم »

اسماعيل أبو العرب واسحق أبو اليهود

طلب الله عز وجل من إبراهيم ان يطلق على زوجته اسم (ساره) بدلا من (سارى) ، وبشره بأنه ينجب منا ولدا هو (أسحق) ، وأن اسماعيل سيكون له شأن عظيم ، فكان مما قاله الله تعالى ، كما جاء فى الاصحاح السابع عشر ، مايلى : « . . . ساره إمرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق ،

---

(١) من تاريخ يوسيفوس .

وأقيم عهدى له عهداً أبدياً لنسله من بعد ، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه ، وأنميه وأكثره كثيرا جداً ، إثنى عشر رئيساً يلد ، وأجعله أمة كبيرة .... » .

روى (يوسيفوس) فى تاريخه[١] ، قصة ميلاد اسحق وختانه فى اليوم الثامن ، وروى أن ساره عادت فأصرت على اقصاء هاجر وابنها ، فخرجا إلى البرية وكاد الغلام أن يموت عطشاً تحت شجيرة من أشجار التنوب ، لولا أن الرب بعث ملاكا هدى هاجر إلى ينبوع ماء قريب .

أما المصادر العربية ، فتروى أن ساره غضبت على إبراهيم لمساواته بين ابنها اسحق ، وهو ابن زوجة حرّة ، وبين ابنه اسماعيل وهو ابن جاريتها هاجر ، وأقسمت ألا تساكن هاجر . فذهب إبراهيم بها وباسماعيل نحو الجنوب حتى وصل إلى الوادى الذى تقوم مكة اليوم به . وكان هذا الوادى يقع على طريق القوافل بين اليمن والشام ، وترك إبراهيم هاجر وابنها اسماعيل ، وأمدهم ببعض الماء والزاد ، وعاد إلى ساره . واتخذت هاجر عريشا أوت إليه مع ابنها ، فلما نفد الماء والطعام ، جعلت هاجر تهرول حتى نزلت الوادى تلتمس الماء ، وهرولت بين الصفا والمروه ، سبع مرات ، ثم عادت إلى ابنها فألفته قد نبش الأرض بقدمه فنبع الماء من الأرض ، فأطفأت ظمأها . فقد شملتهما العناية الإلهية ، فبعث الله عز وجل الملاك جبريل ففجر بئر زمزم[٢] :

مرت قبيلة جرهم اليمنية بهذا المكان ، فوجدت طيوراً تحلق فى سمائه ،

---

(١) يمثل (يوسيفوس) آراء اليهود ، وهو رأى يخالف ما جاء فى مصادرنا العربية فى كثير من التفاصيل .

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ١ ص ١٧٩ .

مما يدل على وجود بناء ، وعثرت بهاجر وابنها ، واستأذنت القبيلة هاجر فى الإستقرار فى الموضع ، فأذنت لهم[١] ، وشب اسماعيل فى قبيلة جرهم ، وتعلم اللغة العربية ، وتزوج ابنة مضاض بن عمرو الجرهمى ، فأنجب منها اثنا عشر ولداهم آباء العرب المستعربة . هؤلاء العرب الذين ينتمون من ناحية خؤولتهم فى جرهم إلى العرب العاربة أبناء يعرب بن قحطان ، ومن ناحية ابوتهم لاسماعيل بن إبراهيم الذى يمت من ناحية أمومته إلى مصر ، ومن ناحية أبوته إلى العراق ، وإلى فلسطين ، مما يرسم لنا صورة للوحدة العربية.

بين اليهودية والعبرية والاسرائيلية :

يرى بعض العلماء أن إبراهيم يسمى عبرياً لأنه من نسل « عابر بن سام » ويرى فريق آخر أنه يسمى عبريا لأنه هو وقومه عبروا نهر الفرات إلى أرض كنعان ، ومهما كان الرأى ، فإن إبراهيم ينتمى إلى قبيلة سامية من الجزيرة العربية ، تنقل بين أرض آرام فى المشرق وأرض كنعان فى الغرب وكلتاهما موطن المتكلمين بالعربية على أقرب لهجاتها وأطوارها إلى اللغة العربية الحديثة ، فالعرب العاربة ، كما تنتمى إلى الارمان ، وأبناء كنعان ينسبون إلى أرضهم الواطنه مع أشهر الأقوال[٢] .

لليهود أسماء كثيرة أولها « العبريون » ، أى الذين عبروا النهر ، أو من هم نسل « عابر بن سام » ، ثم أصبح أسمهم « الإسرائيليون » نسبة إلى إسرائيل أى يعقوب بن اسحق ، ثم أصبح اسمهم اليهود نسبة إلى يهودا بن يعقوب .

ويزعم اليهود أنهم جميعاً أولاد إبراهيم ، وهذا زعم باطل ، وقد ورد فى كتب اليهود أن إبراهيم الخليل هاجر من مدينة أور الكلدانية فى العراق

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٧ .
(٢) عباس العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبرانيين ص ٧٦ .

حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ولم يكن وحيداً فى رحلته ، وعندما هاجر يعقوب إلى أرض مصر ، هاجر معه أكثر من أربعة آلاف نسمة . ولم يكن هؤلاء طبعا من نسله .

وقد مر بنا كيف أقام إبراهيم وقومه فى « الخليل » ، وكيف خرجوا ينتقمون لأسر لوط وقومه ، وكيف أعلن ملك سدوم خضوعه وولاءه . ومعنى هذا أن إبراهيم لم يكن وحيدا ، بل كان له قوم كثيرين . وليس هناك من دليل على أن هؤلاء القوم ينتمون جميعاً إلى أصل واحداً . فقد روت كتب التاريخ أن إبراهيم قد دعا إلى دين التوحيد ، وأن كثيرا من أبناء القبائل والشعوب قد اعتنقت هذا الدين الجديد وانضوت تحت لواء إبراهيم . ولم يقتصر ذلك على أيام إبراهيم ، بل استمر فى أيام سليمان ومن بعده أيضاً وكثيراما إنضم عدد كبير من أفراد القبائل والشعوب المجاورة إلى الدين اليهودى واصبحوا من أتباع سليمان ، وبينهم رجال ونساء من العمونيين والمؤابيين والكنعانيين والحيثيين وغيرهم .

ومعنى هذا ، أن اليهود لم يكونوا شعباً ، حتى فى أقدم عصورهم ، بل كانوا طائفة دينية لاتجمعها غير طائفة الدين . ولاترجع صلة اليهود بفلسطين إلا إلى القرون الأربعة أو الخمسة التى سبقت الميلاد . فيقول المؤرخ (رابوبور Rappoport) فى كتابه « تاريخ فلسطين » : « يعود وجود السكان فى فلسطين إلى عصر بالغ فى القدم . نحو عشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقبل أن يضع اليهود أول قدم لهم فى هذه البلاد ، فقد استوطن بها أقوام ذوو حضارة وتاريخ عريق ، مثل الكنعانيين والحيثيين والفينيقيين والفلسطينيين[1] .

---

(١) انظر أيضا كتاب (التاريخ القديم لمصر وفلسطين) للمؤرخ (بانو) ، وكتاب (تاريخ المصريين القدماء) للمؤرخ (بريستد) .

والمسلم به تاريخياً أن الكنعانيين من أبرز الشعوب التى أثرت فى تاريخ هذه المنطقة حتى عرفت باسم « أرض كنعان » ، وهؤلاء يمثلون الموجة الثانية السامية التى هاجرت من الجزيرة العربية حوالى سنة ٢٥٠٠ ق . م . وامتد سلطانهم حتى مدينة حماة ، وظلت لهم السيادة حوالى ١٥٠٠ سنة .

وتعترف التوراة بأن فلسطين هى موطن الكنعانيين . وهم من أصل عربى . ويذكر المؤرخ الطبرى أنهم من العرب البائدة ، ويؤيده فى ذلك ابن خلدون ، كما يؤيده المؤرخ (بريستد) . ولمّا احتل الهكسوس مصر فى الألف الثانية قبل الميلاد جاءوا إلى فلسطين ، وبنوا بها مدينـــة الخليل ، وأصبحت فلسطين فى عهد تحتمس الثالث مقاطعة تابعة لمصر ، وظلت كذلك لعدّة قرون(١) .

واللغة العبرية لغة سامية قريبة جداً من اللغة العربية ، ومن اللغة الكنعانية والفينيقية ، وغيرها من اللغات السامية المعروفة . وهناك مايدل على أن اليهود قد اقتبسوا اللهجة الكنعانية أكثر من غيرها واستعملوا الحروف الكنعانية القديمة .

تحدث (جوستاف لوبون)(٢) عن امتزاج اليهود بكثير من الشعوب ، وقارن بين العرب الساميين فى الجزيرة العربية ، والموجات السامية التى خرجت من الجزيرة العربية ، فقال : وبينما كان ساميو الجنوب ، أى الأهالى العرب ، يحافظون على عبقرية عِرْقهم النقىّ من كل تأثير أجنبى وظلوا أولئك البدو ذوى المبادىء البسيطة والعبادة القليلة والطبائع الفطرية الثابتة ، كان ساميو الشمال يعقدون نظامهم الكونى ، فيثقلون عبادتهم بالشعائر والجزئيات ، فينتحلون طائفة من الآلهة المجهولة فى البادية ويشيدون

---

(١) محمد فرج : فلسطين عربية ، ص ٢٢ .
(٢) لوبون : اليهود فى الحضارات الأولى ، ص ٢٦ .

المدن ويضمون مختلف النظم ويحاولون تأسيس أمم على غرار الأمم التى بهرتهم فنونها وعلومها فقلبت خيالهم . وهكذا ابتعد ساميو الشمال عن مثال عرقهم الأصلى لاتصالهم الطويل بأمم أرقى منهم كثيرا .

اليهود فى مصر الفرعونية .

لم يزل اليهود فى هجرتهم من موطن إلى موطن ، بين العراق وحوران وكنعان ، يعيشون إلى جوار القبائل ولا يتغلبون على واحدة منها فى وقعة فاصلة حتى لجأوا إلى مصر ، وعادوا منها بعد قرون إلى الأرض التى زعموا أنها « أرض الميعاد » وإن لم يتفقوا على حدودها .

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً تقليدياً بالأيام التى قضوها فى مصر ، فيعتبرونها محنة المحن فى تاريخهم كله من عهد ابراهيم الخليل إلى عهد النازية الهتلرية فى القرن العشرين .

ولكنهم يغالطون ، فهم لم يستفيدوا قط من هجرة فى تاريخهم كله كما استفادوا من هجرتهم إلى مصر ، حيث نعموا بالحياة الرغدة على ضفاف النيل ، وبجو صحىّ زاد من عددهم ، ونهلوا من مناهل الحضارة المصرية العريقة ما زاد فى خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن انفسهم ، فأصبحوا يمارسون الزراعة ، كما أحسنوا حمل السلاح بحيث أصبحوا قادرين على مناز قبائل البادية التى عجزوا طوال خمس قرون على مناهضتها مما اضطرهم إلى الاعتصام بمصر .

ولولا هذه الزيادة فى عددهم وفى خبرتهم لما استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التى كانوا يهابونها ويهربون منها ، ولا استطاعوا أن يهزموها ويطردوها من مواقعها إذا اجترأوا على قتالها ، ولا تأتى لهم من دواعى

الإستقرار فى أرض كنعان مايعينهم على إقامة المُلك وبناء الهياكل من الحجارة بدلا من العرائش والخيام[1]،

اضطر يعقوب إلى الهجرة إلى بابل حيث أقام عند خاله عشرين سنة تزوج خلالها من بنتيه « ليا » و « راحيل » ، ثم عاد إلى فلسطين ، واشترى أرضا فى اورشليم وابتنى مذبحا سمّاه « بيت آيل » وهو بيت المقدس الذى جدّده سليمان فيما بعد . وأصاب البلاد أثناء وجوده قحط شديد ، فغادرها وقومه فى سنة ١٤٠٠ ق . م . إلى مصر حيث تكاثروا فيها .

تروى التوراة[2] قصة بنى اسرائيل فى مصر ، فتذكر أن يعقوبا علم بتوافر القمح فى مصر ، فقال لأولاده : « إنى قد سمعت أنه يوجد قمح فى مصر ، إنزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هـــناك لنحيا ولا نموت » . وخرج أبناء يعقوب إلى حيث تقابلوا مع أخيهم يوسف ، وطلب منهم القدوم إلى مصر « لأن للجوع فى الأرض الآن سنتين ، وخمس سنين أيضاً لاتكون فيها فلاحة ولا حصاد » . وعادت أخوة يوسف إلى أبيهم يعقوب تنقل إليه رغبة يوسف فى هجرتهم إلى مصر ، حيث اصبح يوسف كما وصف نفسه « قد جعلنى ـ الله أبا لفرعون وسيّدا لكل بيته ومتسلطاً على كل أرض مصر » .

وفى مصر ، أحاطهم يوسف بعنايته ورعايته . وأكرمهم فرعون إذ رأى يوسف يهتم بهم وتذكر التوراة[3] أن هذا الإكرام والاهتمام أدّى إلى زيادة عددهم وثروتهم ، فتقول : « أما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم[4] » .

---

(١) العقاد : الثقافة العربية ، ص ٥٩ .
(٢) سفر التكوين ، من اصحاح ٤٢ إلى اصحاح ٤٧ .
(٣) سفر الخروج : اصحاح (١) .
(٤) المصدر السابق .

عاش بنو إسرائيل فى مصر فى عزلة وابتعدوا عن الاختلاط بالشعب المصرى ، فهُم فى كل زمان ومكان يميلون إلى الانعزالية والانفصالية ؛ ممّا لم يوجد الألفة والتفاهم بينهم وبين سائر الشعوب . فقد تولى العرش فى مصر فرعون جديد، فبدأ الخطر يتهدد بنى إسرائيل ؛ فقد أوجس الفرعون الجديد منهم خيفة . فتقول التوراة : « ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف ، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمّون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض ، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس . ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا ، فاختشوا من بنى إسرائيل . فاستعبد المصريون بنى اسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل ... »[1]

وقد نتساءل : لماذا وقف فرعون من بنى اسرائيل هذا الموقف ؟ كانت هناك عدة دوافع دفعت فرعون مصر إلى انتهاج هذه السياسة . فلم يكن فرعون ينظر إلى بنى إسرائيل على أنهم جزء من قومية ؛ فقد عاشوا فى عزلة تامة عن الشعب المصرى . كما أن بنى إسرائيل قد قدموا إلى مصر لا ليقيموا فيها أو يندمجوا بأهلها ؛ بل ليخرجوا منها بعد أن تتجمع لهم فى مصر قوة المال والعدد . وهذا ما رسمه لهم ربهم (يهوه) إذ قال لهم مخاطباً إسرائيل « انا انزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضاً » .

وكان فرعون قد نظر إلى بنى إسرائيل نظرة ريبة وشك وتخوف ؛ فقد خشى ان ينضموا إلى الأعداء إذا دخلت مصر فى حرب ؛ فقد كانت أنظار الإسرائيليون وعواطفهم تتجه دائمـــا إلى خارج مصر ؛ وليس إلى داخلها .

---

(١) سفر الخروج : اصحاح (١) .

كما أن بنى إسرائيل اعتادوا ألا يعيشوا فى ظل حكم سياسى إلا واستغلوه لتحقيق مطامعهم الاقتصادية، فما أن تضاءل نفوذ يوسف، وفقد الإسرائيليون مركزهم الذى كان يحقق لهم الثراء بدون جهد ، حتى سخطوا على مصر وفرعونها وشعبها ، واتهموا نظام الحكم الجديد بالظلم والقسوة .

ورفض بنو إسرائيل أن يعملوا فى الزراعة أو البناء ، وهما الصناعتين الرئيسيتين فى مصر القديمة حينئذ، ولذا اعتبروا تكليف فرعون لهم بممارسة هاتين الصناعتين تعذيباً وقسوة . بينما كان فرعون فى الحقيقة يريد ربط الإسرائيليين بالأرض ، وأن يشغلهم بالعمل عن تدبير المكائد والمؤامرات والتحالف مع أعداء مصر[1].

موسى واليهود .

ليس على الأرض فريق من الناس تدلل على نبيه كما تدلل بنو إسرائيل على موسى ، وليس على الأرض صنف من الناس أرسل الله إليهم عدة أنبياء كما أرسل لبنى إسرائيل ، ورغم ذلك ، فقد كان اليهود دائماً مصدر متاعب لنبيهم موسى عليه السلام والأنبياء من بعده ، وظلوا كذلك مصدر متاعب ومشاكل إلى تاريخنا المعاصر[2].

روى القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام ، ومعجزاته ، وخروجه من مصر . فقد طلب موسى وهارون من فرعون أن يرسل معهما بنى إسرائيل مهاجرين من مصر بعد أن عانوا ألواناً من الظلم والاضطهاد . ثم هاجر موسى وهارون ببنى إسرائيل شرقاً متجهين نحو فلسطين ، فلحق بهم فرعون عند البحر ، فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ، فانفرق ماؤه عن طريق سلكه بنى إسرائيل وتبعهم فرعون وجنوده ونجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون ومن معه فى البحر .

---

(١) دكتور محمد عبد المعز نصر : الصهيونية ، ص ٤١ .
(٢) برائق والمحجوب : محمد واليهود ، ص ٣ .

قال الله تعالى في القرآن الكريم : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » .(١)

وإذا رجعنا إلى كتاب اليهود الذي أدخلوا عليه كثيراً من التحريف والخيال ، نرى وصفاً لعقاب الرب « يهوه » للمصريين ، يصوّر الخيال الإسرائيلي المجبول على الحقد والانتقام ، فقد حوّل هذا الخيال ماء النيل إلى دماء تسبح فيها الضفاع : « ثم قال الرب لموسى قل لهرون خذ عصاك ومُد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً فيكون دم في كل أرض مصر ، في الأخشاب وفي الأحجار . ففعل هكذا موسى وهرون كما أمر الرب ، ورفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده ، فحوّل كل الماء الذي في النهر دماً . ومات السمك الذي في النهر وانتن النهر ، فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر ، وكان الدم في كل أرض مصر . . . ولما كملت سبعة أيام بعد ما ضرب الرب النهر ، قال الرب لموسى أدخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب ، أطلق شعبي ليعبدوني ، وإن كنت تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع ، فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع . . . »

بعد خروج اليهود من مصر ، بدأت متاعب موسى . فقد سار موسى ، ومن خلفه اليهود ، وطال بهم السير حتى تعبوا فصاحوا فيه يتساءلون إلى أين المسير ، فأخبرهم أنه يقصد جانب الطور الأيمن للقاء ربه وتلقي أوامره ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٧ .

ولكنهم توجهوا بالشكوى ، فقد أجهدهم السير واشتد بهم العطش وطالبوه بإيجاد عين ماء يستقون منها فدعا موسى ربه ، فأمره الله أن يضرب بعصاه حجراً أمامه ، فنفّذ أمر ربه ، وتفجر اثنتا عينا ، لذريّة كلّ ولد من أبناء إسرائيل الإثنى عشر عين منها . وماكاد اليهود يروون ظمأهم ، حتى طالبوا بالطعام ، فعاد موسى يدعو ربه أن يحقق لليهود رغبتهم فى الطعام ، وحقق الله سبحانه وتعالى رغبتهم ، فأنزل عليهم المنّ والسلوى[1] . وبعد أن فرغ اليهود من الآكل ، طالبوا موسى بالمكان الظليل حيث يجلسون بعيداً عن القيظ ، فعاد موسى يدعو ربّه ، ولبّى الله تعالى نداء نبيّه ، فظللتهم سحابة حجبت عنهم حرارة الشمس .

قال الله تعالى فى القرآن الكريم : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيّبات ما رزقناكم وما ظلمنا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[2].

ترك موسى قومه ، ليلقى ربه ، ويتلقى ألواح التوراة من الله فوق جبل الطور ، حتى إذا عاد موسى بعد شهر وجد اليهود وقد نبذوا شرائعه وتعاليمه ، وأحاطوا بعجل من الذهب ، على شكل حلقة ، يرقصون حوله ، ويهللون له ، يعبدونه دون الله ، ويقدمون له القرابين[3] .

جاء فى القرآن الكريم قوله عز وجل : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد

---

(١) المن : مادة على أوراق الأشجار حلوة الطعم . السلوى : طائر السمان ، يطير بشكل أسراب ويتساقط على الأرض بكثرة .
(٢) سورة البقرة .
(٣) سفر الخروج ٣٢/٩ .

ذلك لعلكم تشكرون . وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون»[١].

لام موسى اليهود ، وشعروا بذنبهم ، وأخذوا يعتذرون . وجاء فى سفر الخروج أن موسى أعلن أنه لن يقبل توبتهم إلا إذا قاتل بعضهم بعضا، فتقاتل الجماعة التى امتنعت عن أن تعبد العجل ، الجماعة الأخرى التى عبدته. واستجاب اليهود لرغبة موسى ، وسالت الدماء أنهاراً وسط ولولة النساء وصراخ الأطفال .

اختار موسى سبعين رجلا من اليهود وتوجه بهم إلى جانب الطور الأيمن ، حيث اعتاد أن يلقى ربّه دائماً ، ليعلنوا لربهم التوبة والندم ، وتقدم موسى إلى الله سبحانه وتعالى ، وقومه يسمعون ، يطلب منه عز وجل أن يغفر لليهود ويسامحهم، ولكن اليهود مدفوعين بجشعهم وجحودهم ، طلبوا أن يروا الله جهرة ، فأنزل الله عليهم صاعقة ، ولكن موسى عاد يرجو ربّه أن يغفر لقومه .

أخذ موسى يعظ قومه ويبلغهم أوامر ربه ، ولكنهم أبوا الهداية والرشد ، واستمروا فى مضايقاتهم ونشوزهم ، فكان إذا دعاهم موسى للقتال قالوا : «إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون» . وأنزل الله على اليهود عقابه ، وحكم عليهم بأن يتيهوا فى الأرض ، ويعيشوا مشردين ، محرومين من الوطن والاستقرار .

اليهود بعد موسى :

بعد موسى ، قام بشئون اليهود تابعه المخلص (يوشع بن نون) ، وهو

---

(١) سورة البقرة .

من ذرية يوسف . وعاود اليهود نشوزهم وخروجهم عن الطاعة . وبعد يوشع جاء (كالب بن يوغنه) ، فلاقى من اليهود الأمرّين . ثم تتابع على بنى إسرائيل قضاة ينظمون أمورهم . ومرّت السنون ، وتحوّلت معظم القبائل الإسرائيلية إلى الوثنية ، وأهملوا تعاليم التوراة ، وظهر عدة أنبياء حاولوا أن يذكروهم بالدين الحقيقى ، دون جدوى .

وفى تلك الفترة ، قام أول احتكاك بين بنى إسرائيل وبين عرب الحجاز (العمالقة) ، فقد نزحت أعداد كبيرة من الاسرائيليين ، وصحبهم زوجاتهم وأطفالهم ، إلى أراضى الحجاز فى الجزيرة العربية ، ناشدين الحرية والأمان ، بعيداً عن الاضطهادات والمنافسة حول الحياة . وفى الحجاز ، احتلوا أخصب الواحات ، واحتكروا أهم الموارد الإقتصادية . وكانت هذه الهجرة هى أولى الهجرات اليهودية التى سنراها تنزح إلى شبه الجزيرة العربية فيما بعد .

اليهود فى فلسطين

فى سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد ، خرج اليهود من مصر بقيادة موسى ، وبعد أن خافوا من دخول فلسطين من الجنوب ، عادوا إلى الصحراء ، حيث تاهوا مدة أربعين عاما ، ودخلوا البلاد من شمال البحر الميت ، فاحتلوا أريحا ثم انتشروا فى المناطق المجاورة لها ، فكان قسم منهم يقيم فى جوار (رام الله) ، بينما أقام قسم آخر فى شمال الخليل ، وكان الفلسطينيون يحاربونهم ويطردونهم إلى جبال الخليل ونابلس ، إذ كان الفلسطينيون قد دخلوا فى العصر الحديدى بينما كان اليهود مازالوا فى العصر البرونزى ، ولذلك كان الفلسطينيون أقوى منهم[1] .

---

(١) محمد عطيه واكد : إسرائيل فى الميزان ، ص ٩ .

وصف (جوستاف لوبون)[1] حضارة اليهود فى تلك الفترة فقال : وظل بنو إسرائيل قوماً من الزراع والرعاه ، حتى بعد صلتهم الطويلة بالحضارة الكلدانية الساطعة ، وحتى بعد إقامتهم بمصر ، وما فتئت العادات القديمة التى اتفقت لهم فى المراعى البدائية الواسعة والطبائع السامية البسيطة تستحوذ عليهم ، ولم تؤد المؤثرات الأجنبية التى أبصرناها فى طبائعهم ودياناتهم ، فيختلفون بها عن إخوانهم عرب البادية ، إلى غير تغيير سطحى فيهم من حيث النتيجة . وبقى بنو إسرائيل ، حتى فى عهد ملوكهم ، بدويين أفاقين مغيرين سفاكين . وإذا كان بنو إسرائيل متمردين على الفنون تمرداً مطلقا ، ولم يكن لهم غير ميل هزيل إلى حياة المدن فإنهم لم يقيموا معابد وقصوراً إلا عن غرور .

بعد استقرار اليهود فى فلسطين ، خضعوا لحكم غريب ، يجمع فى آن واحد بين النظام الكهنوتى والفوضى ، وأدّت بهم هذه الحالة إلى الضعف والفوضى ، وتطلعت نفوسهم إلى أن يكون لهم رئيس مسئول يتولى أمرهم ويقودهم فى الحرب . فتولى الحكم عدة ملوك ، دخلوا فى صراع عنيف مع الكهنة ، فقد أراد الكهنة أن يحتفظوا بالسلطة الزمنية إلى جانب ما كانت لهم من سلطة روحية .

أدّى الصراع بين الملوك والكهنة حول النفوذ إلى اضطراب أحوال اليهود ، فأخذ الملوك يصرفون أفراد الشعب عن التمسك بدين موسى ، لأنه هو الرابطة التى تصل بينهم وبين طائفة الكهان ، ويغرونهم فى السرّ بعبادة الإله (مولوخ) ، وهو أشنع الآلهة السامية البدائية ، ويرمز له بتمثال من النحاس لعجل كبير الحجم يوضع فوق النار حتى يحمّر ، ثم تُلقى فى جوفه

---

(١) لوبون : اليهود فى الحضارات الأولى ص ٣٠ .

الضحايا البشرية من الأطفال والصبايا ، والإلهة (عشتروت) التى تفرض الدعارة الإجبارية على جميع النساء .

وبذلك أخذ بنو إسرائيل يهجرون دين موسى شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق لهم فى النهاية إلا اسمه ، واستعاضوا عنه بدين وثنى بدائى ، شجعهم الكهنة على اعتناقه ليستمر نفوذهم وحتى يصبحوا سدنة هذه الآلهة الجديدة . كما أخذ هؤلاء الكهنة يغذّون الروح العنصرية والعصبية اليهودية ، فزعموا لقومهم أنهم « شعب الله المختار » الذى اختاره الله للسيطرة على العالم بعد القضاء على سائر الشعوب .

ملوك اليهود :

ظل اليهود فى الصحراء ضالين أربعين سنة ، حتى قادهم يوشع بن نون ، بعد وفاة موسى عليه السلام ، إلى شرق الأردن ومنها إلى فلسطين[1]. وعاش اليهود تحت قيادة يوشع حياة بداوة وتأخر .

ذكر (بن جوريون) فى مقدمة الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل ، تحت عنوان « إسرائيل بين الأمم » : « قد جاء احتلال فلسطين من قبل يوشع بن نون فى وقت كانت فيه القبائل فى فلسطين ، وعلى حدودها، غارقة فى صراع دام فيما بينها ، وكان على اليهود أن يمضوا سنوات طويلة يصارعون هذه القوى حتى يقيموا مملكة إسرائيل » .

وبعد خمسة قرون من الإنقسام المتواصل توحدوا واقتبسوا نظم جيرانهم ،

---

(١) أنظر الاصحاح ١٦ — ٣١ من سفر صموئيل الأول

واختاروا (شاؤول) ملكاً عليهم فى مملكتهم التى قامت فى وسط فلسطين وجنوبها وفى أجزاء من شرق الأردن[1].

ويعتبر (جوستاف لوبون)[2] أن تاريخ اليهود يبدأ بعهد الملك (شاؤول)، فيقول: لا يبدأ تاريخ اليهود بالحقيقة إلا فى عهد ملوكهم ، فقد كان بنو إسرائيل أقل من أمة حتى زمن (شاؤول)، إذ كانوا أخلاطاً من عصابات جامحة ، وكانوا مجموعة غير منسجمة من قبائل سامية صغيرة أفاقة بدوية ، تقوم حياتها على الغزو والفتح والجدب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضى عيشاً رغداً دفعة واحدة فى بضعة أيام ، فإذا مضت هذه الأيام القليلة عادت إلى سابق عهدها .

ثم يقول لوبون[3] : وببداية عهد (شاؤول) بدأ بنو إسرائيل يستحقون أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقى الذى كان لهم فى العالم. فأنقذهم ملكهم الأول ذلك من هَوْل الفلسطينيين الدائم بأن أنزل على هؤلاء الأجانب ضربات هائلة .

وجه (شاؤول) حملات متعددة ضد العمالقة والفلسطينيين باءت بالإخفاق ، وهزمه الفلسطينيون هزيمة ساحقة فى وادى يزرعيل، وكان من بين القتلى ابنى (شاؤول)، وأصيب هو بسهم ، فأمر أحد رجاله بأن يجهز عليه بدلا من أن يقتله الفلسطينيون ، حتى إذا أبى ذلك الرجل ، قتل نفسه .

وبعد (شاؤول) خلفه داود عليه السلام سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ،

---

(١) محمد فرج : فلسطين عربية ص ٢٣ .
(٢) لوبون : اليهود فى الحضارات الأولى ص ٣٢ .
(٣) اليهود فى الحضارات الأولى ص ٣٦ .

ولكن مملكته كانت لا تزيد على رقعة صغيرة جداً تمتد بين جبال القدس ونابلس ، وكانت مدينة القدس ليست خاضعة لليهود ، بل كان سكانها (اليابوسيين) قد منعوا أى يهودى من دخولها أو الإقامة فيها . إلا أن داود استطاع فتحها وضمها إلى مملكته ، كما انتصر على الفلسطينيين بعد عدة حملات عسكرية ، واتخذ بيت المقدس (أورشليم) عاصمة له ، فقد حكم داود أربعين سنة ، سبعا فى حبرون ، وثلاثة وثلاثين سنة فى أورشليم .

تحدث (لوبون)(١) عن جهود داود فقال : كان داود صورة تاريخية طريفة إلى الغاية ، فأشبهه مختاراً ببابر المغولى . ولكى يُنعم داود على قومه بتلك العاصمة الواقعة فى أصلح مكان وأسهل محل للدفاع عن فلسطين ، اضطر إلى طرد (اليابوسيين) سادة جبل صهيون ، ولم يكن (اليابوسيون) وحدهم هم الأعداء الذين وجب على داود أن يقهرهم ، فقد أظهر داود فى عهده من النشاط الكبير ما حقق الوحدة اليهودية ودعم المملكة العبرية الصغيرة .

وفى سنة ٩٧٠ قبل الميلاد ، أصبح سليمان بن داود ملكاً ، ووجد أن الفتح العسكرى لا يمكن أن يخضع السكان فى فلسطين وما جاورها ، فلجأ إلى السياسة والدين والمهادنة ، واستطاع بذلك أن يهادن القبائل والممالك المجاورة ، ويمنع الحروب ، فعاش مدة ٣٥ سنة دون أن يخوض حربا حقيقية ، ولذلك فإن سليمان لم يكن فاتحا ، بل كان ملكا ونبيّاً وسياسياً ماهراً ، فتزوج من ابنة فرعون ليضمن صداقة المصريين ، وهادن ملك الفينيقيين ، وغيره من الملوك والرؤساء ، وتمكن من إنشاء دولة صغيرة .

بنى سليمان هيكل سليمان فوق ربوة(٢) ، فى السنة الرابعة من ملكه ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) وهو المكان الذى يقوم عليه المسجد الأقصى وبيت المقدس .

وأتمه فى السنة الحادية عشرة من حكمه ، وقد أثقل بناء الهيكل والقصر كاهل الشعب بالضرائب حتى أن موارد إسرائيل نضبت حين مات . واهتم سليمان بتوسيع رقعة الأراضى الزراعية ، كما شاد مدينة تدمر . وفى سنة ٩٧٠ ق . م . مات سليمان ، فكان موته إيذانا بانهيار الدولة .

انقسام اليهود وسقوط مملكتى اسرائيل ويهوذا .

بعد موت سليمان ، تولى إبنه (رحبعام) ، فلما طالب بالبيعة خاطبه الرؤساء قائلين : « إن أباك قسى نيرنا فعليك أن تخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل » ، فلم يستمع إليهم ، بل قال : « إن خنصرى أغلظ من متنى أبى ، وإن أبى حملكم نيراً ثقيلا وأنا أزيد ، وأبى أدبكم بالسياط ، وأنا أودبكم بالعقارب » . وأدى هذا إلى اختلاف الكلمة والشقاق .

انقسم اليهود إلى قسمين ، فحاول يهود نابلس إنشاء دولة اسمها (إسرائيل) ، كما حاول يهود القدس إنشاء دولة (يهوذا) . ولكن الأقطار المجاورة كانت تنتهب هاتين المملكتين .

نجح فرعون مصر (شيشاق) أن يحتل القدس فى سنة ٩٣٠ ق . م ، أى بعد وفاة سليمان بخمس سنوات . وتقدم (بن هود) ملك دمشق فحاصر نابلس وأخضعها . كما ثارت (مواب) ضد حكومة إسرائيل ، وثارت (أروم) ضد مملكة يهوذا ، وعمت الفوضى والاضطرابات المملكتين على السواء ، حتى قدم السوريون فى سنة ٧٣٥ ق . م . واحتلوا شمال فلسطين .

وصف المؤرخ « برستد »[1] انقسام دولة سليمان فقال : شاد سليمان لأمته هيكلا ، تعبد فيه « يهوه » ، ولكن الأمة العبرانية لم تغتفر لسليمان

---

(١) برستد : العصور القديمة (ترجمة داود قربان) طبعة ١٩٣٠ .

بذخه وإسرافه ، فسارع قسم كبير منها إلى الثورة ، وتكوين مملكة خاصة في الشمال . وعاشت هاتان المملكتان ، تقربهما الأرض ، ويباعدهما ثراء أهل الشمال وفقر أهل الجنوب . ومضي الثراء والفقر يقومون بمهمتهما ، الاول يغمر أصحابه بالترف ويعودهم الرفاهية ، والآخر يقهر أصحابه بالبؤس ويقسرهم على الخشونة .

وخلال هذا الصراع بين المملكتين اليهوديتين ، ظهرت دولة آشور كقوة عسكرية كبرى ، وتمكنت من السيطرة على الشرق الأوسط . وفى سنة ٧٢١ ق . م . زحف « شلمناس » الرابع ملك آشور واحتل مملكة الشمال العبرانية ، وطرد عنها سكانها ، وطرق أبواب أورشليم . ومالبث الآشوريون أن احتلوا أيضا مملكة إسرائيل وطردوا أهلها إلى العراق ، وأحلُّوا مكانهم قبائل عربية من بابل وسورية وجزيرة العرب .

وحين باتت أورشليم على وشك السقوط تحت أقدام الآشوريين ، كان (أشعيا العبرانى) يبعث الطمأنينة فى قومه المروعين ، ويبشرهم بأن (يهوه) سيحفظهم من كل سوء ، وسينشر الوباء بين جيش آشور فيرتد الجند عن أسوار أورشليم . وهكذا وُجدت عند اليهود العقيدة التى تزعم أن اليهود هم شعب يهوه المختار .

وفى سنة ٥٩٧ ق . م احتل الكلدانيون فلسطين . وفى ٥٨٦ ق . م حاول بقايا اليهود التمرد على سلطان بابل فى فلسطين ، فدخل البابليون القدس وأحرقوا الهيكل وهدموا المدينة وأباحوا للجند البلاد والسكان ، فأعملوا القتـــل والسلب والنهب ، وتشرد اليهود فى الآفاق ، وأصبحت أورشليم ـ كما يقول لوبون ـ أثراً بعد عين[1].

---

(١) اليهود فى الحضارات الأولى ص ٤١ .

تولى (كورش) الحكم فى الدولة الفارسية سنة ٤٥٦ ق . م ، ووضع مشروع فتح مصر ، فأصدر مرسوما يسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين ، طمعاً فى مساعدتهم له فى القتال ، ولكن اليهود أبوا العودة اللهم إلا نفر من الشيوخ والفقراء الذين أملوا فى قضاء أيامهم الأخيرة فى أورشليم . وفى ذلك يقول (لوبون)[1] : ومن العبث أن أصدر « كورش » مرسوما أذن فيه للعبريين بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء مدينتهم وهيكلهم ، فهم لم يجدّدوا بناء أورشليم إلا مرتجفين مهددين من ملوك الفرس الذين كانت تساورهم الريبة من كل حجر يضاف إلى الأسوار . والواقع أن استقلال اليهود لم يكن غير إسمى بعد ذلك ، وماقتىء الفرس والإغريق والرومان يبسطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة فتتميز هذه المملكة غيظا من هذا الاستعباد المتصل ، فلا تجد ماتتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب .

وفى سنة ٧٠ ق . م . استولى الرومان على مصر والشام بقيادة (طيطس) ، وحاول اليهود أن يقوموا بثورة ضدهم ولكنهم أخفقوا ، وأخمدت ثورتهم ونُكّل بزعمائهم ، وقُتل معظمهم ، وحُمل من بقى منهم ليعمل فى المحاجر والمناجم فى مصر ، وأتلف الرومان الهيكل وحرموا عليهم دخول القدس ، فغادر كثير منهم فلسطين إلى العراق .

وبذل اليهود محاولة أخرى ـ وهى فى ذات الوقت آخر محاولاتهم ـ لإحياء التراث العبرى فى فلسطين فأعلن بعضهم فى عام ١٣٥ العصيان على الرومان فى القدس ونادوا بقيام إسرائيل فهاجمهم الحاكم الرومانى هادريان، ودمر القدس وقتل أهلها ، وفرّ من نجا منهم خارج فلسطين هائمين على وجوههم فى شتى أرجاء العالم[2].

---

(١) المصدر السابق .
(٢) محمد فرج : فلسطين عربية ص ٢٥ .

٢ — موقف اليهود من المسيحية

اليهودية لم تحقق الاستقرار الديني

أخفقت اليهودية فى القضاء على الفوضى الدينية التى كانت سائدة حينئذ فى أرجاء العالم القديم ، كما فشلت فى تحقيق نوع من الاستقرار الدينى ، لأن الإسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا جماعة بدوية ذات حضارة متأخرة ، لا تحقق الحياة الراقية التى كان البشر ينشدونها ، كما لا توفر سبل الربط بين الدين والدنيا ، فى وقت كانت حضارات فارس والهند والصين قد قطعت فيه شوطاً كبيراً من التقدم والازدهار .

ومن البديهى أن مطالبة قوم لهم حضارة راقية بقبول دعوة قوم يعيشون فى بداوة وتأخر ، مهما كانت دعوتهم هذه منصرفة إلى أغراض دينية سماوية ، لا تلقى غير الإعراض . وكان كل من الفارسى والهندى والصينى والرومانى يعتبر نفسه أكثر حضارة وثقافة وأرق نظماً من الإسرائيلى ، كما كان لهذه الأمم دياناتها وآلهتها ، فلم يجدوا ضرورة فى فى تبديلها ، وبخاصة أنهم رأوا أن اليهودية لا تحقق أغراضهم الدينية والدنيوية على السواء .

وكان الدين اليهودى (دين تشبيهى) ، أى أنه يعتبر التنزيه المطلق للوحدة الإلهية تشبيهية ، وذلك فضلا عن بعض التخيلات الصوفية الغامضة المبهمة . وكان اليهود ينقسمون إلى شعبتين متميزتين : (الفاريزيون Ghariziste) وهم يعتنقون المذهب الإسرائيلى القائم على الظواهر ، و (الكباليون Kappaliste) وهم طبقة المتصوفين من حاخامات وغيرهم ممن

أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غريبة على كتب العبادة التى وضعوا أركانها(١).

والشعبة الأولى لا قيمة حقيقية لها ، فهم كالأنعام يسيرون وراء الشعبة الثانية التى احتكرت التوجيهات الدينية وسيّرتها وفقاً لمصالحهم المادية الخاصة ، وكان هؤلاء (الكباليون) يتنكرون لكل ما هو روحى ومعنوى فى الحياة ويتبعون مذهبا ماديا أنانيا .

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضّل بنى إسرائيل على كافة الخلق ، وهو سريع الغضب على من عصاه ، ينتقم منه ومن ذريته دون تسامح . ولذا فإن الإسرائيليين يخشونه ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية ، أى أن العبادة عند هذه الفرقة تشبيهية تتفق مع مصالحهم الخاصة أو أنها عبادة استنتاجية مادية تتحرّى وجود النفع للمخلوق وتفترض أن الخالق يتمشى على أهواء مخلوقاته ، فلا تنزيه ولا توحيد لألوهيته .

ثابر أنبياء إسرائيل على أن يلقوا على مسامع أتباعهم أن الله اصطفى الشعب العبرى ليكون شعبه المختار ، وأن الله يقوم على مصالحه ورعايته مما لاتحظى به الشعوب الأخرى . مما أدى إلى غرور اليهود واستعلائهم العنصرى ، واحتقارهم لسائر الشعوب ، إذ ظنوا أنهم أكثر تفوقاً طبيعيا . واعتقد اليهود أن « العهد » الذى قالت الكتب المقدسة أنه تم بينهم وبين « يهوه » ليس إلا محالفة بين ندّين متساويين تضمن لليهود التسلط المادى على جميع بنى البشر فى مقابل التفافهم حول « يهوه » وإيمانهم به . وامتلأت نفوسهم بغضا واحتقاراً لشعوب الأرض كلها ، وبعد أن كانوا

---

(١) طه المدور : الديانات والحضارات ص ٧ .

يرون أنهم « شعب الله » أصبحوا يؤمنون أنهم « الشعب الإله »[1].

ولهذا فقد تمكن الإسرائيليون من أن يتكتلوا ويكونوا وحدات اجتماعية متعصبة ، لانشاهدها لدى بقية شعوب العالم ، وذلك رغما عن الاضطهاد والتشتت اللذين صادفوهما فى فترات كثيرة من تاريخهم .

هذه هي زبدة الديانة التى قام اليهود يبشرون بها فى جهات آسيا ، فلم تلق إقبالا ، لأنها مجردة من المنطق والحقيقة ، ومن العبادة الروحية الخالصة التى تلمسها فى أديان الهند والصين غير السماوية . وتعجبت الشعوب الاسيوية المتحضرة مما ذهب إليه اليهود من أنهم شعب الله المختار ، وأن الله لم يخلق هذا العالم إلا لأجلهم ، وخاصة أن اليهود كانت حضارتهم بدائية متخلفة .

وهكذا رأينا أن اليهودية لم تكن إلا شريعة دنيوية مادية تمت إلى تعاليم موسى بصلة الإسم فقط . وأين الوصايا العشر مما أشتهر به اليهود من أنانية وغرور ومادية ؟ !

موقف اليهود من ظهور المسيحية

سقطت دولة بابل ، وبدأت عودة اليهود على دفعات ، فاستقروا فى فلسطين وأعادوا بناء هيكل أورشليم ، وكونوا مجتمعا لاتربطه غير العقيدة اليهودية ويرأسه كاهن ، ولكنهم احتفظوا بغرورهم واستعلائهم العنصرى[2] . وأخيراً وقع اليهود تحت الحكم الرومانى ، وبدأ الرومان

---

(١) دكتور محمد القصاص : الاسرائيليون وروح العدوان ص ٨٦ .

(٢) أنظر كتاب (تاريخ الاسرائيليين) للمؤرخ اليهودى (ريناش Reinach) طبعة باريس ١٩٢٠ .

يولون من يشاءون ملوكا يحكمون اليهود ويسوسونهم لحساب الامبراطورية الرومانية ، وبدأ بعض اليهود يتأثر بالحضارة الرومانية واليونانية ، وإن احتفظت غالبيتهم بالطابع اليهودى .

مرّ بنا كيف أخفقت اليهودية فى دعوتها الدينية التى حاولت نشرها فى العالم القديم ، وأصبح من المحتم ظهور عقيدة جديدة تقود البشرية إلى الهداية والإيمان .

ظهرت المسيحية فى بادىء الأمر وسط البيئات الإسرائيلية ، ولكن التعاليم المسيحية كانت تخالف التعاليم اليهودية المحرّفة تماما ، فالديانة اليهودية بعد تحريفها أصبحت تركز على المادة بينما الديانة المسيحية نظرت إلى معنويات الحياة كالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام وتقدير .

كانت المسيحية تدعو إلى الإعراض عن الدنيا والاعتراف بالآخرة والثواب والعقاب ، بينما يثير اليهود الشك حول هذه الموضوعات . ودعت المسيحية إلى الترفق بالانسانية بينما اليهود دأبهم الشدة والطمع . ونادت المسيحية بأخوة أبناء المجتمع البشرى بينما اليهود يضعون أنفسهم فوق سائر الشعوب ، ونادى المسيحيون أن الله هو رب العالمين لارب المسيحيين فقط بينما اعتقد اليهود أن (يهوه) أى الله هو إلههم وحدهم . وتدعو المسيحية إلى التسامح والعفو بينما يسعى اليهود إلى العفو عن طريق المقايضة والارتشاء . ودعت المسيحية إلى احترام الحق العام بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، بينما لايخدم اليهود إلا حقوق طائفتهم فقط .

كانت تعاليم المسيحية تخالف ماكان اليهود يدعون إليه ، مما جعل انتشار المسيحية فى المحيط الذى نشأت فيه صعباً عسيراً ، نتيجة منابذة اليهود لها . ومقاومتهم لأتباع المسيح ومنعهم بشتى الأساليب الوحشية عن التبشير بها . فكان نتيجة هذا الاضطهاد للدين المسيحى فى البيئات الشرقية أن أخذ ينتشر ويتوسّع فى المحيط العربى وخاصة فى روما وأثينا .. وأقبل

سكان أوروبا على إعتناق المسيحية ، وكان أوّل من تقبل المسيحية واتخذها دينا رسميا الإمبراطور (قسطنطين) ثم انتشر الدين فى بلاد الرومان واليونان وسائر أوروبا .

وقد نتساءل : لماذا نجحت المسيحية فيما أخفقت فيه اليهودية ؟ .

كانت تسود القارة الأوروبية روح الضجر والنفوذ ، إلى جانب عبادة الأشخاص والشعوذة والسحر والوثنية . وظهرت فكرة إصلاح الحياة الاجتماعية عن طريق إصلاح المعتقدات الدينية ، وصادف ظهور الفكرة ظهور المسيحية ودعوة (بولس) الرسول لها واتخاذه روما مركزا لدعوته فنجح فى نشر هذه الديانة .

هذا فى الوقت الذى أخفقت فيه الديانة اليهودية نتيجة غموض تعاليمها وأنانية اليهود ، وتعصبهم ، وانفصاليتهم ، وتعاليمهم ، ثم مناهضتهم المسيح عليه السلام وقتلهم أتباعه .

الصهيونية قبل المسيحية وبعد ظهورها :

لانجد لكلمة (صهيونية) أصلا فى اللغة العبرية ، وأكثر الشرّاح يرجحون أنها كلمة عربية الأصل ، لها نظير فى اللغة الحبشية ، وأنها من مادة الصون والتحصين ، وكانت فعلا من حصون الروابى العاليـــة . والمقصود بالعربية هنا لغة الأصلاء من أبناء الجزيرة العربية الذين سكنوا أرض فلسطين قبل هجرة العبرانيين بمئات السنين . وهم الذين أطلقوا على الأرض إسم أرض كنعان بمعنى الأرض الواطئة ، ولاتزال مادة (كنع) و (قنع) بهذا المعنى فى لغتنا العربية الحالية .

وكلمة (صهيون) تكتب فى العبرية تارة بالسين وتاره بالزاى ، ولم يحرص عليها اليهود ، بل جاء فى سفر صموئيل الثانى أن داود غير اسمها

باسم بيت داود . ولم يشأن أن ينقل تابوت الرب إليه . كذلك كان شأن صهيون قبل سبي بابل . فلما حمل اليهود إلى الأسر أصبح الحنين إلى صهيون رمزا للحنين إلى عوده المملكة الغابرة . وتحولت الوعود الإلهية فى كتبهم تحولا جديدا يتمشى مع مصالحهم السياسية ، فانحصرت فى ذرية داود . فقد كان الوعد لإبراهيم فحولوه إلى اسحق ليخرجوا منه أبناء اسماعيل ، ثم حولوه إلى ذرية داود لينحصر فى مملكة الجنوب دون مملكة الشمال . وهكذا كان وعد صهيون (وعدا سياسيا) تابعاً لمآرب الدولة ومآرب الهيكل الذى يقام فى جوارها ، فلا شأن له بالعقيدة الدينية التى تشمل جميع سلالة إبراهيم .

وفى الأسر البابلى ، تعلم اليهود بقايا الديانة القديمة وما استعارته من الشعائر من عودة « مردخ » إلى الارض وعودة رسل النور كل ألف سنة إليها لإصلاح فسادها ، فتعلقت آمالهم بعودة المملكة على يد بطل من أبطال الغيب . ولم يكن هذا البطل مقصورا عندهم على ذرية داود بل زعموا مرة أنه هو « كورش » الفارسي الذى سُمّى بالمسيح فى الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا . ولبثوا دهرا يتخيلون المسيح الموعود ملكا صاحب عرش وتاج يفتتح بيت المقدس بالسيف ويعيد فيها الدولة الزائلة ثم يئسوا مع الزمن من تجدد المملكة بقوة السلاح فعلقوا الرجاء بالرسول المختار من عالم الروح وقيل فى وصفه كما جاء فى سفر زكريا :

« إنه عادل ومنصور ووديع يركب على حمار ابن أتان »[1].

ولكن بعد ظهور المسيح ، أنكر كهّان الهيكل بعثته ، وإن كان بعض أهالى فلسطين قد أقبلوا على اعتناق المسيحية .

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٢١ .

وفى عصر المسيح ، تفرق اليهود فى أرجاء الدولة الرومانية ، فكتب (فيلون) فيلسوف الإسكندرية اليهودى يقول فى تحديد موقفهم من الدولة! « إن اليهود ، لكثرة عددهم ، لاتحتويهم بقعة واحدة ، ويتفرقون لطلب الرزق فى أغنى البلاد من أوروبا وآسيا ، على أنهم ينظرون إلى أورشليم مقر هيكل الله المقدس كأنها حاضرتهم الكبرى . ويحسبون وطنا لهم كل أرض عاشوا فيها وعاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم » .

وهكذا لم تكن الصهيونية فى الزمن القديم عقيدة دينية . بل كانت نزعة سياسية، ثم ذهب الأمل فى نجاحها السياسى ، فانقطعت العلاقة بينها وبين معناها الجغرافى ، وأطلقت فى بعض التعبيرات على معنى آخر بعيد كل البعد عن المعانى الجغرافية ، وذلك حيث يقول صاحب الرسالة إلى العبرانيين من الإنجيل : « أنكم لم تأتوا إلى جبل مضطرم بالنار ... بل أتيتم إلى جبل صهيون ، وإلى مدينة الله الحى أورشليم السماوية ... وكنيسة أبكار مكتوبين فى السموات ، وإلى الله ديان الجميع »[1].

* * *

وهكذا ، لم يكن اليهود من أصل فلسطينى ، بل هم بابليون وأجدادهم هم العبرانيون . كما أن اليهود لم يكونوا أول من سكن فلسطين ، وإنما سبقتهم فيها شعوب كثيرة ، منذ قرون طويلة .

وكان أول من استوطن فلسطين هم العرب بشهادة التوراة ، ومعنى هذا أن عروبة فلسطين أقدم قومية عرفها التاريخ .

كما أن الدولة اليهودية التى أسسها داود فى سنة ١٠٤٩ ق . م . شملت

---

(١) المصدر السابق .

جزءاً صغيراً فى فلسطين ، ولم تعمّر هذه الدولة طويلا ، فعاشت فى الشمال حتى سنة ٧٢١ ق . م . ، وعاشت فى الجنوب حتى سنة ٥٨٦ ق . م

وانتقل اليهود إلى العراق (بابل) وفقدوا بهجرتهم جميع عناصر القومية ورفض اليهود العودة إلى البلاد حين دعاهم كورش الفارسى وأصروا على البقاء بعيدا عن فلسطين ، وتخلوا عن كل فكرة تهدف إلى العودة إليها ، أو تأسيس دولة فيها . فيقول المؤرخ (رابوبور) : « لقد نشأ فى بابل عند اليهود فى القرن السابع قبل الميلاد فكرة مآ لها إن إسرائيل يمكن أن تعيش بلا دولة وبدون ملك ومن غير أرض » .

ولا يذكر التاريخ أبدا أن اليهود استطاعوا أن يسيطروا يوماً ما على أرض فلسطين بكاملها ، وأن يصبحوا وحدهم سكانها ، بل كانوا يقيمون فى أجزاء منها ، بينما كانت معظم الأراضى فى أيدى قبائل وشعوب أخرى ، لم تغادر البلاد حتى فى الأزمان التى اضطر اليهود فيها إلى الرحيل والتشرد فى أرجاء العالم .

٣ـ اليهود فى الجزيرة العربية

قبل الإسلام

اضطهاد الرومان لليهود وهجرتهم الى الجزيرة العربية :

استمر اليهود يحرّفون البقيّة الباقية من العقائد الموسوية ويوجهونها الوجهة التى أرادوها لها ، وكانت الوسيله التى اتبعوها للوصول إلى هذه النتيجة هى التأويل التى استغلوها فى التزييف والتشويه ، وسموها طريقة « التفسير الرمزى » حيث ادّعوا أن الكتاب المقدس لا يعنى معناه الحرفى ، بل ما يكمن وراء هذا المعنى من دلالات باطنية لا يستطيع الجهال معرفتها إلا عن طريقها ، وعلى هذا النحو استطاعوا أن يقنعوا عامة اليهود بأن ماورد فى التوراة مثلا من وصايا تأمر بحب الغريب واحترام حقوقه لا تعنى إلا الغريب من اليهود وأن يوحوا لهم بعاطفة بغض فطرى لكل ماهو غير يهودى .

وكان المنافقون قد وصلوا إلى ما أرادوا من تسميم أفكار غيرهم من اليهود وتشويه عقولهم حينما ظهر المسيح الذى كشف نفاقهم فى كثير من آيات الإنجيل ، ولكن المسيح ومن بعده أتباعه قد دفعوا ثمن كشفهم عن هذا الخداع غاليا إذ راح اليهود الذين كانوا منبثين فى أرجاء الأرض يعملون على تشويه سمعة المسيح وأتباعه برميهم بأفظع التُهم ، وتأليب الحكومات والهيئات ضدهم(١).

---

(١) القصاص : الاسرائيليون وروح العدوان ص ٨٩ .

تكرر الصراع بين اليهود والمسيحيين، فقام اليهود بثورة على الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد، وذبحوا فيها كل من وقع تحت أيديهم من غير اليهود، ثم انتهت بهزيمتهم وتشتيت شملهم وهدم معبدهم على يد «تيتوس». ولكنهم عادوا بعدها إلى جمع شملهم ونصبوا لهم حاخاماً عاماً جديداً، وأعادوا تكوين مجلس حكمهم «السانهدرين»، ومجمعهم العلمي ووثقوا الروابط بينهم وبين جالياتهم المنبثة فى أرجاء الأرض، ونظموا جمع الضرائب من أفرادها.

وقاموا بمحاولة أخرى سنة ١١٥ فى عهد الحاخام «أكيبا» الذى يسمّونه «أبا السنّة التلمودية» وفيها ذبحوا مائتى ألف من المسيحيين فى ليبيا وحدها، و ٢٤٠ ألفاً فى قبرص مابين مسيحيين ووثنيين، وفى سنة ١٣٤ قاموا بمحاولة أخرى كانت من أشنع المحاولات التى قاموا بها، إذا اغتالوا فيها مئات الآلاف من غير اليهود بقسوة معدومة النظير، ولكنها أيضاً باءت بالاخفاق. وبعد ذلك تتابعت ثوراتهم وتتابع معها اخفاقهم وتشتيت شملهم.

أخذ يهود فلسطين يذوبون شيئاً فشيئاً فاندمج بعضهم فى الحضارتين اليونانية والرومانية، وقد تخلوا على الأقل عن تحجرهم وجمودهم الفكرى، بيد أن فريقاً منهم استبقى إيمانه بالديانة اليهودية كرمز للكيان اليهودى فلم يستسغ التفريط فى أحدهما، فكان لا يفتأ يثور على الإحتلال الأجنبى. وكان قيام الثورات المسلحة ضد الحضارة الهيلينية أكبر دليل على جمود الفكر اليهودى، ومالبثت ثورات اليهود أن استنفذت صبر الإمبراطورية الرومانية فدمّرت أورشليم سنة ٧٠ بعد الميلاد وذبحت عدداً كبيراً، وبيعت النساء والأطفال فى أسواق الرقيق، وتمكن البعض من الفرار فخرجوا إلى الأقطار المجاورة، وكانت الجزيرة العربية مقصد عدد كبير منهم [1].

---

(١) لوبون : اليهود فى الحضارات الأولى ص ٤٢ .

الصلات بين العرب واليهود قبل الهجرات اليهودية

كان اليهود من الناحية الجغرافية هم الجيران الملاصقون للعرب ، كما أنهم من الناحية الجنسية ينتمون إلى الأصل السامى الواحد ، كما أن اللغتين العربية والعبرية من اللغات السامية . وبعض الأسماء العبرية فى العهد القديم ما هى إلا عربيّة[1] . ولا يجد الرجل من عرب الجنوب إلا صعوبة قليلة فى فهم الآية الأولى من سفر التكوين العبرى . وتدل البحوث على أن أصول الديانة العبرية قد بدأت فى الصحراء .

وقد تجولت قبائل اليهود (راشيل) زهاء الأربعين سنة فى سيناء والنفود ، فى طريقها من مصر إلى فلسطين حوالى سنة ١٢٢٥ ق . م . وفى مدين فى الجزء الجنوبى من سيناء والأرض الواقعة إلى الجزء الشرقى منها نزل العهد المقدس . وقد تزوج موسى من امرأة عربية هى إبنة أحد الكهنة المدينيين من عباد الله (بالعبرى يهوه) ، وهو الذى علّم موسى العبادة الجديدة ، وكان (يهوه) إلها قبليا لمدين أو لبعض بلاد العرب الشمالية ، وهى عبادة بسيطة ساذجة ، وتتلخص عبادته فى إقامة مآدب صحراوية وذبائح وقرابين محروقة . ودخل العبرانيون فلسطين كبدو ، وظل ماورثوه فى حياتهم القبلية من أسلافهم فى الصحراء ملاصقا لهم حتى بعد أن أقاموا بين السكان الأصليين من الكنعانيين وتعلموا احضارتهم .

وكانت المملكة العبرانية فى أوج اتساعها تمتد إلى سيناء ، وكان لسليمان أسطوله فى خليج العقبة ، يصل إلى (أومينو) وهى ظفار فى عمان لجلب الذهب وخشب الصندل . وحدثت مناوشات عديدة بين العرب واليهود ، عبر السنون ، منها ما كان بين (عزيا) و (حزقيا) وبين المعينيين . كما

---

(١) من أمثلة ذلك كل أبناء عيساو (التكوين ٣٦ : ١٠ — ١٤ ، أخبار الأيام الأول ١ : ٣٥، ٣٧) .

وجه عرب الجنوب حملة عسكرية ضد (يهوذا) نتج عنها فقد الملك يوحرام (٨٤٨ - ٨٤٤ ق . م .) لأولاده وزوجاته وكنوزه . وفى عهد (نحميا) فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، كان اليهود قد بدأوا ينظرون إلى جيرانهم العرب فى الجنوب الشرقى كأعدائهم[1] .

كان أسم (فلسطين) لايطلق على القطر المعروف بهذا الإسم الآن ، بل كان قاصراً على شعب قديم ، ولم يطلق على هذا القطر إلا قبل نصف قرن ، أمّا معنى كلمة (فلسطين) فإنه مشتق من إسم شعب كان يقيم فى تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة ، وهناك مايدل على أن هذا الشعب من أصل عربى ، بينما يعتقد بعض المؤرخين أنه قدم من جزيرة كريت أو من مكان آخر فى حوض البحر المتوسط .

ويذكر التاريخ أن قبائل عربية بدأت تنزح من شبه الجزيرة العربية منذ عشرة آلاف سنة ، وأن هذه القبائل كانت تغزو سوريا والعراق ومصر وتستقر فيها ، وأن معظم الشعوب والدول التى ظهرت فى الأقطار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربية ، وأن الكنعانيين والفينيقيين والبابليين والكلدانيين والحيثيين والآراميين والآشوريين والهكسوس وغيرهم ، كانوا جميعا من القبائل العربية العاربة أو التى استعربت مع مرور الزمن ، ولاشك أيضا فى أن تدمر وغسان ولخم والأنباط وموءاب وأدوم وغيرها كانت هى الأخرى عربية .

وقبل قدوم شعب فلسطين واستقراره فى الرقعة الجنوبية من بلاد الشام كانت هناك قبائل عربية أخرى قد أستقرت فى البلاد وأقامت فيها ، ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء إلى بير السبع والخليل ، واليابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وماحولها ، والكنعانيون الذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل إلى لبنان .

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٤٨ — ٤٩ .

وكان لشعب فلسطين هذا حضارة زاهرة أمتدت حتى جزيرة كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان ، وقبل أن تقوم سفن الفينيقيين بجوب البحار ، كانت سفن الفلسطينيين تمخر عباب البحار إلى المناطق الواقعة فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط . وكان أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل عسقلان وينبا وبيت داجون وبيت جبرين وغيرها . وكان هذا الشعب يعبد الإله داجون ، وقد رسموه على شكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل إلى أعمال البحر . وكان هذا الشعب يعيش حياة القبائل العربية ، ولكل قبيلة ملك ، وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب(١).

الهجرات اليهودية الى الجزيرة العربية ·

بعد اضطهاد الرومان لليهود ، خرجت جماعات كثيرة منهم مهاجرة إلى أرجاء كثيرة من العالم القديم . وكانت الجزيرة العربية مقصد كثير من الهجرات ، وكان قد هاجرت جماعات من بنى إسرائيل إلى جزيرة العرب فى العهود الأولى التى قاربت عهد موسى ، ولا يزالون واقعين تحت تأثير بيئتها . لذلك ما كاد اليهود يشعرون نتائج المسئوليات والتبعات حتى فضلوا حياة بلاد عرفوها واختبروا لقاءها ، وعرفوا رحابة صدر أهلها ،فتسرب عدد منهم إليها .

وأصبحت الجزيرة العربية بعد ذلك مهبطا مرغوبا لليهود ، يسارعون إلى الهجرة إليها كلما شعروا بخطر يهددهم ، فينزلون فى رحاب أخوانهم الذين سبقوهم إليها آمنين شرّ أعدائهم ، وقد فصلت بينهم مفاوز الصحراء(٢).

---

(١) وآكد : اسرائيل فى الميزان ص ٧ .

(٢) برانق والمحجوب : محمد واليهود ص ١٩ .

وقد نتساءل : ماهى مدى حضارة هذه الجماعات اليهودية التى نزحت إلى الجزيرة العربية بعد اضطهاد الرومان لها ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ أن نفرّق بين اليهودية كدين له عقائده ومقدساته ، وبين اليهودية كمذهب سياسى حاول منذ قديم الزمان أن يفرض طابعه على حضارة العالم ، وأخفق فى ذلك اخفاقا ذريعا ، لأنه لم يكن يعتمد على فلسفة سياسية معقوله أو آراء حضارية مقبولة .

والدين يحتاج إلى تطور مستمر حتى يتفق مع روح العصور المتعاقبة ، ويساهم فى خلق الحضارة والتقدّم . ومن حقّ الدين على أتباعه أن يتأثروا به ويتمسكوا بمبادئه بشرط أن يحاول جعله متفقا مع تقـــدم البشرية ليساعدهم هذا الدين على السير فى ركاب الحضارة بدلا من أن يجعلوه حجرة عثرة بينهم وبين التطور والتقدم . وبما أن الدين هو العمل والاستمرار فى العالم ، لذلك نرى الأديان المعروفة تساير الزمن ، وتساير التطوّر .

ولقد مرّت على الدين اليهودى فترة طويلة بقى فيها فى مكانه ، فبقى ديناً يتعلق بالعقائد والعبادات . أما الحضارة والتقدم فقد أصبحت شيئا آخر لم يكن لليهود فيها نصيب ولم يستطع اليهود أن يساهموا فى الحضارات الأولى لأنه لم تكن لديهم حضارة بل كان لديهم دين فقط[1]

وصف (جوستاف لوبون)[2] حضارة اليهود عند هجرتهم إلى أرجاء العالم فقال : لم يجاوز اليهود أطوار الحضارة السفلى التى لاتكاد تميز عن

---

(١) أنظر كتاب (العصور القديمة واليهود) للمؤرخ اليهودى البريطانى (سيسل روث) تجد كثيراً من التفاصيل .

(٢) لوبون : اليهود فى الحضارات الأولى ص ١٥ و ٢٠ .

طور الوحشية ، وعندما خرج هؤلاء البدويون ، الذين لاأثر للثقافة فيهم، من باديتهم ، كان شأنهم شأن جميع العروق الدنيا التي تكون في أصول عائلة ، فلم يقتبسوا من تلك الأمم سوى أخسّ ما في حضارتها . وأثبت اليهود عجزهم التام عن الإتيان بأدنى تقدم في الحضارة التي اقتبسوا أحط عناصرها . واليهود قد اقتصرت معارفهم على تربية السوائم ، وعلى فلاحة الأرض وعلى التجارة بصفة خاصة .

أقام بنو إسرائيل في وادي الأردن ، ولم يجولوا في البحر كما كان يجول الفينيقيون ، ولم يكونوا مطلقاً سادة للساحل . ولم تبد مهارة بني إسرائيل سوى في الزراعة ، فقد كانوا عاطلين عن أي فن ومن أي علم ومن أية صناعة ، وزاولوا التجارة كوسطاء . ولم يمارس اليهود من الفنون الجميلة سوى الموسيقى التي هي فن جميع الشعوب البدائية . ورغم ممارسة اليهود للحرب باستمرار ، إلاّ أن الحرب لم تصبح عندهم فناً أو علماً ، فكانت حروبهم تشبه غارات البدو ، إلى جانب ما اشتهر اليهود به من جبن ووحشية وممارسة الرق على نطاق واسع[1].

تناثرت الجماعات اليهودية في أرجاء الأرض ، حاملة معها تفكيرها البدائي الذي يذهب إلى أن بني إسرائيل خير الأمم ، لأنهم شعب (يهوه) وأن أرض إسرائيل أحسن البلاد لأنها موطن يهوه .

توارث اليهود هذا التفكير ، فأوجد فيهم الغرور والتحزب والانزواء وكان الزمن كفيلا بحل هذه العقدة النفسية وإعادتهم إلى حظيرة الانسجام البشري ، لولا أن تولىَّ مقاليد المسيحية جماعة لم تتشبع بجوهرها الخالد (المحبة) وما تعنيه من تسامح ، وانتشر التفكير الذي لم يكن من المسيحية في شيء ،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ — ٤٥ .

اليهود فى بلاد العرب كانوا من الآراميين والعرب المتهودين لا من سلالة إبراهيم(١) .

بدأت هذه القبائل اليهودية المهاجرة تستقر فى أراضى اليمن ، وتمارس نشاطا اقتصاديا واسعاً ، وخاصة الزراعة والتجارة ، فقد كان العالم القديم فى حاجة شديدة للغلات الموسمية التى تنتجها بلاد اليمن ، وخاصة البخور والتوابل والصمغ والأعشاب الطبية ، كما كانت بلاد اليمن حلقة اتصال بين الإقليم الموسمى فى جنوب شرق آسيا ، وإقليم البحر المتوسط .

انتشرت فى بلاد اليمن عدة أديان ، ومنها عبادة الشمس ، فقد جاء فى القرآن الكريم عن ملكة سبأ : (إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)(٢) .

وأدت هذه الفوضى الدينية السائدة فى بلاد اليمن إلى أن تجد اليهودية مجالا بين أهالى اليمن ، وإن ظلت كما سنرى فى نطاق محدود . وقد وجد أحد ملوك الدولة الحميرية أن اعتناقه اليهودية قد يحقق مصالحه السياسية ويدعم نفوذه فى بلاده ، وهو أسعد بن كرب (٣٨٥ - ٤٢٠ م) وتروى المصادر العربية القديمة كثيرا من الأخبار عن هذا الملك ، وتحيطه بهالة من الانتصارات الحربية ، فتذهب إلى أنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس ، كما هزم ملك سمرقند وقتله ، ودخلت جيوشه بلاد الصين وعادت محملة

---

(١) حتى تاريخ العرب ص ٧٤ .
(٢) سورة النمل آية ٢٣ .

بالغنائم ، كما أدّت له القسطنطينية الجزية ، كما غزا يثرب ، وكسا الكعبة[1].

وتروى هذه المصادر العربية روايات حول اعتناق هذا الملك الحميرى للدين اليهودى ، فتروى أن أسعد حين عاد من الشرق إلى اليمن ، مرّ بيثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ، وكان قد خلّف هناك إبنا له ، فقتل غيلة ، فلمّا علم الملك بذلك قرّر الإنتقام بضربها وعقاب أهلها ، وبدأ قتالهم . ولكن ، خلال القتال ، قدم عليه حبران من أحبار يهود بنى قريظة ليتحدثا إليه فى العفو عن أهل يثرب ، وكان هذان الحبران على جانب من الفصاحة وطلاقة اللسان ، حتى أن الملك أبدى اعجابه بهما . فعفاعن أهل المدينة . وانصرف عنهم ، وعاد إلى اليمن مصطحبا معه الحبرين اليهوديين ، ودعا قومه إلى إعتناق اليهودية[2].

هذه هى القصة التى روتها المصادر العربية القديمة ، ولكننا لانعتقد أن هذا الملك الحميرى يعدل عن قتال أهالى المدينة ، ثم يعتنق اليهودية ، ويجعلها الدين الرسمى للدولة ، لمجرد إعجابه بفصاحة وبلاغة حبرين من أحبار اليهود ، والعرب هم أهل الفصاحة والطلاقة ، بحيث تتضاءل أمامها فصاحة هؤلاء اليهود النازحين من الشام . ولكننا نرى أن هذين الحبرين اليهوديين قد نجحا فى إقناع الملك بأن إعتناقه اليهودية سيدعم نفوذه السياسى فى بلاده . ويخلص بلاد اليمن من الفوضى والانقسامات الدينية التى كانت تهدد وحدتها . وكان الملك الحميرى يشترك مع القبائل اليهودية النازحة فى العداء للدولة الرومانية المسيحية .

---

(١) ابن هشام : كتاب التيجان فى ملوك حمير ص ٢٩٤ وما بعدها .
(٢) التيجان ص ٩٥ ، الطبرى ج ٢ ص ٩٤ وما بعدها .

كانت كل من الدولتين الرومانية والفارسية تتمنى لو أنها نجحت فى بسط سلطانها على إقليم الحجاز ، فقد كانت الدولتان قبل ظهور الإسلام تتنافسان على مناطق النفوذ ، ولكن وعورة الطرق الموصلة إلى الحجاز ، وطول خطوط الإمدادات والتموين ، وجدب الصحراء ، وعدم وجود جيش عربى مركزى توجه إليه الدولة الفارسية أو الدولة الرومانية جيوشها وجهودها ، أدى إلى بقاء الحجاز فى أيدى أصحابه من العرب بعيدا عن السيطرة الأجنبية .

حتى إذا لمس الفرس والروم عجزهم عن بسط نفوذهم السياسى على بلاد الحجاز ، اتجهوا إلى بلاد اليمن . حيث كانت تحكمها الدولة الحميرية العربية . وأخذ الرومان ينشرون المسيحية كتمهيد لبسط السيادة الرومانية وأدرك الفرس حقيقة أهداف الرومان فعملوا على الوقوف فى وجه السياسة الرومانية وأخذوا يعرقلون التجارة الرومانية فى الخليج الفارسى .

الصراع بين اليهود والمسيحية فى اليمن :

بدأت المسيحية تجد طريقها إلى اليمن عن طريق الشام ، وقد أخذت البعثات السورية تقدم إلى اليمن فى فترات متلاحقة . وكانت أول سفارة مسيحية إلى جنوب بلاد العرب ، وصلت إلينا أخبارها ، هى تلك التى أرسلها الإمبراطور (كونستانتيوس) فى سنة ٣٥٦ م بزعامة (تيوفيلوس أندوين ألا ريوس) وكان الباعث الحقيقى لإرسال هذه البعثة ، ظروف السياسة الدولية فى تلك الفترة ، نتيجة للتنافس بين إمبراطوريتى الفرس والروم فى سبيل الحصول على مناطق نفوذ فى جنوب بلاد العرب ، وكانت لهذه البلاد أهمية اقتصادية كبرى ، فقد كانت تنتج غلات اقتصادية هامة ، كما كانت تقع على طرق التجارة الرئيسية فى العالم القديم .

نجح (تيوفيلوس) فى إنشاء كنيسة فى عدن ، وكنيستين أخرتين

فى مدينتين أخريتين . وأصبحت مدينة نجران معقل المسيحية فى بلاد اليمن سنة ٥٠٠ م ، وتكونت فيها جالية مسيحية كبيرة العدد قوية النفوذ .

بدأ الصراع فى بلاد اليمن بين اليهود والمسحية ، وتسابق الفريقان إلى تهويد أو تنصير أهالى اليمن الذين ظل معظمهم على أديان آبائهم وأجدادهم وهى أديان بدائية غير سماوية ، واشتد الصراع والاشتباك وسالت الدماء من الفريقين . وكانت (اللاسامية) من جملة العوامل التى غذت ذلك الصراع واتبعت الحكومة البيزنطية سياستها القديمة فى مقاومة اليهود واضطهادهم والضغط عليهم . مما دفع باليهود إلى أحضان الفرس أعداء الروم التقليديين الألداء(٢).

ورحب الفرس بمحالفة اليهود ، فقد بدأ الفرس يخشون من انتشار المسيحية فى بلاد اليمن ، واعتبروا ذلك تمهيدا للنفوذ الرومانى السياسى وقد كان الفرس يتمنون انتشار الزرادشتية ، وهى احدى عقائد المجوس فى الجزيرة العربية كلها ، ولكنها لم تلق قبولا من العرب ، فظلت فى نطاق محدود فى الأجزاء الشرقية من الجزيرة العربية ، وخاصة فى اقليم البحرين . ولذا لم يجد الفرس بدا من الاعتماد على اليهود ، كعملاء سياسيين لهم ، رغم اختلافهم معهم فى العقيدة ، وكان يجمع الفرس واليهود عداؤهم للروم المسيحيين .

انتصرت اليهودية فى بلاد اليمن ، حين اعتنقها آخر ملوك الدولة الحميرية ، وهو الملك (يوسف ذو نواس) . وبدأ اضطهاده العنيف للمسيحيين ، إذا اعتبرهم عملاء سياسيين للدولة الرومانية . كما تعصب ذو نواس لليهود تعصبا شديدا ، وأراد الانتقام من الدولة الرومانية لاضطهادهم اليهود . فلم يجد مجالا غير اضطهاد المسيحيين فى بلاد اليمن(١).

---

(١) جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ١٨١ .
(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٤٥ .

هاجم الملك ذونواس مدينة نجران ، معقل المسيحية ، وخيّر أهلها بين الارتداد عن المسيحية أو القتل، فاختاروا الاستشهاد من أجل عقيدتهم فقتلهم حرقاً فى الخنادق وصوّر القرآن الكريم هذه الحادثة ، فى الآيات الكريمة[١] (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) . ويعلل الدكتور فيليب حتى[٢] هذه الواقعة بأن ذانواس كان يمثل الروح القومية ، فكان يرى فى مواطنيه المسيحيين ما يذكره بالنفوذ الرومانى الأجنبى البغيض .

أعلن الإمبراطور البيزنطى (جستنيان) سخطه على الملك ذى نواس لما ألحقه بالمسيحيين فى نجران ، وقد كان الإمبراطور يعتبر نفسه حامياً وراعيا لجميع المسيحيين فى أرجاء العالم . وطلب الإمبراطور من نجاشى الحبشة المسيحى غزو بلاد اليمن وإنقاذ المسيحيين والانتقام من ذى نواس . وكان جستنيان يرمى من وراء ذلك إلى غرضين ، أحدهما سياسى ، وهو اتخاذ بلاد اليمن طريقا لتجارته إلى الشرق إذا وقعت فى يد حلفائه الأحباش، ليقضى على تجارة منافسيه الفرس ، والآخر دينى وهو جعل السيادة للدين المسيحى هناك[٣]

كانت الحبشة حينئذ فى ذروة مجدها ، تجرى بأمرها على البحار تجارة واسعة،ويمخر لها العباب أسطول قوى يجعلها تتسلط بنفوذها على ماحاذاها من البلاد ، وكانت حليفة الإمبراطورية البيزنطية ورافعة علم المسيحية على البحر الأحمر ، كما كانت بيزنطة رافعة عليها على البحر المتوسط[٤]

---

(١) سورة البروج ٨٥ آيات ٤ ـ ٥ .
(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٧٥ .
(٣) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٩ .
(٤) هيكل : حياة محمد ص ٣٦ .

انتصر الأحباش على ذى نواس والحيريين سنة ٥٢٣ م . وقد روى الطبرى(١) أن ذانواس همز جواده واقتحم أمواج البحر ولم ير ثانية . وهكذا كانت خاتمة آخر ملوك حمير وذهب وبذهابه عصر استقلال اليمن .

تظاهر الأحباش بأنهم قدموا للأنتقام من ذىنواس لما حل بالمسيحيين فى نجران ، ولكنهم كانوا يتخذون هذه الحجة ستاراً يخفـــون وراءه أغراضهم الاستعمارية . فقد أصبح أرياط حاكما على بلاد اليمن ، وظل يتولى أمور هذه البلاد حتى أخذ عليه قواده انحيازه إلى فريق منهم فى توزيع العطاء والغنائم ، فاجتمعوا بقيادة أبرهة وقضوا عليه . وبذلك خلا الجو لأبرهة ، فتولى الحكم فى اليمن بدلا من أرياط(٢)

أقام الأحباش فى اليمن كفاتحين ، وانقلبوا كمستعمرين ، وظلوا منذ سنة ٥٢٥ إلى ٥٧٥ م يهيمنون على بلاد اليمن ، واستثمروا مواردها الاقتصادية لمصلحتهم .

اتخذ الصراع بين اليهود والمسيحيين صورة أخرى جديدة . وبعد أن كان الملك الحميرى ذو نواس يعمل على تهويد أهالى اليمن ، بدأ أبرهة سياسة تنصير اليمن ثم الجزيرة العربية . وتحقيقا لهذه السياسة شيد أبرهة فى العاصمة صنعاء كنيسة ضخمة كانت تعتبر حينئذ من أعظم كاتدرائيات العالم فخامة وروعة ، وهى التى يسميها كتاب العرب (القليس) وهى مشتقة من الكلمة اليونانية (أكليزيا Ekklesia) ومعناها كنيسة . وقد أراد الأحباش أن تكون هذه الكنيسة الكبرى نواة لدولة مسيحية كبرى فى بلاد اليمن ثم تمدّ هذه الدولة نفوذها فيما بعد على شبه الجزيرة العربية ،

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٠٩ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١ .

فيصلون بذلك بين دولة الأحباش المسيحية والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) التى تمتد إلى مشارف الجزيرة العـــربية حيث تقوم إمارة الغساسنة .

تميزت كنيسة صنعاء بالفخامة والضخامة ،ويرى الدكتور (حتى)[1] أن الأحباش المسيحيين كانوا ينوون تنصير البلاد ، وخلق منافس لمكة الوثنية التى كانت مركز الحج فى الشمال ، لأن الحج كان مورد دخل عظيم لأولئك الذين يسكنون فى تلك المدينة التى كان يسافر إليها الحجاج ، وقد نجح الأحباش بتأسيس ذلك المعبد الدينى فى الجنوب فى اجتذاب الجماهير ، وأصبح التنافس الاقتصادى عظيما .

أثار مشروع أبرهة حفيظة العرب ، فخرج رجل من بنى مالك بن كنانة حتى قدم اليمن ، ودخل الكنيسة وعبث بأثاثها وانتهك حرمتها . وغضب أبرهة لذلك أشد الغضب ، وأقسم ليهدمن الكعبة وليحملن العرب على أن يحجوا إلى كنيسته بالسيف ، بعد أن أعياه حملهم على ذلك بالرفق واللين وتحدث ابن هشام[2] عن أثر قسم أبرهة فى العرب فقال : « وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وقطعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة ، بيت الله الحرام» .

ثم كانت حملة أبرهة العسكرية ، التى تطلق عليها اسم (حملة الفيل) ، وقد انتهت بالإخفاق الذريع ، فقد أنقذت العناية الإلهية بيت الله الحرام من أبرهة وجيشه ، وعاد أبرهة فى نفر من جنده إلى اليمن يروى مأساته وما لبث أن مات بعد أيام قليلة . وصوّر القرآن الكريم ما لحق بحملة

---

(١) تاريخ العرب ص ٧٦ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٥ .

الفيل فى هذه الآيات الكريمة : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول)(١)

وتحدث المؤرخ (براون)(٢) عن غزو الأحباش للكعبة فقال : إن عام الفيل يعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ حياة العرب القومية . ولا شك أن هذه الحادثة التاريخية كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة حتى انهم أصبحوا يؤرخون بها احداثهم .

وبعد فترة وجيزة من هزيمة أبرهة ، قامت حركة وطنية فى دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش . وكان على راس هذه الحركة سيف بن ذى يزن الحميرى ، الذى سعى لإنقاذ قومه ، فسار إلى ملك الحيرة ليتوسط له لدى كسرى انوشروان ليمده بقوة يستعين بها فى إخراج الأحباش من بلاد اليمن .

كان العرب المسيحيون فى تلك البلاد يتطلعون إلى الحماية والدعاية من من الروم ، كما كان اليهود والوثنيون من العرب يلوذون بالفرس ويطلبون العون منهم ، فلما استنجد سيف بن ذى يزن بكسرى فارس ، أمده بحملة سنة ٥٧٥ م بقيادة وهرز . وقد تغلّب هذا القائد على الأحباش فى اليمن ، وأنقذ هذه البلاد من حكمهم البغيض(٣)

قامت على أثر ذلك فى بلاد اليمن حكومة مشتركة ، تقلد فيها سيف بن يزن ولاية إسمية ، وانتحل (وهرز) وظيفة نائب فى تلك البلاد . واستمر

---

(١) سورة الفيل ١٠٥ آيات ١ — ٥ .

(٢) Lit Hist of Persia, V. I. p. 176

(٣) جال سرور : قيام الدولة العربية ص ٨ .

الفرس يسيطرون على شئون اليمن ، حتى اعتنق (باذان) آخر الأمراء الفرس ، الإسلام ودخل فى طاعة الرسول ، وأصبحت بلاد اليمن جزءاً من الدولة العربية الإسلامية .

وبذلك أسدل الستار على صراع اليهود والمسيحيين فى اليمن أو بعبارة أخرى صراع الدولتين الفارسية والرومانية حول النفوذ السياسى فى اليمن وبدأت اليمن تدخل فترة جديدة من فترات تاريخها .

اليهود فى بلاد الحجاز

قصدت بعض القبائل اليهودية النازحة من بلاد الشام ، إلى بلاد الحجاز حيث استقرت فى أخصب واحاتها ، وخاصة يثرب وخيبر وفدك وتيماء . ولم يقصد اليهود مدينة مكة . فقد كانت مركز الوثنية وقد تمسك أهل مكة بوثنيتهم التى كانت تدر عليهم أرباحا طائلة ، فلم يكونوا يسمحون بإقامة اليهود بينهم ، وقد قدموا بعقيدة تخالف عقائدهم الوثنية تماماً . كما كانت مكه مدينة قاحلة جدباء فقيرة فى مواردها الاقتصادية بحيث لا تحقق أطماع اليهود فى الاستثمار الاقتصادى وكانت قبيلة قريش قد سيطرت تماما على النشاط الاقتصادى ، وخاصة التجارة ، فى مكة خاصة وفى بلاد الحجاز عامة . ورغم ما اتصفت به مدينة الطائف من خصوبة ورخاء اقتصادى إلا أن اليهود لم يقصدوها للاقامة فيها ، فقد كانت على مسافة قريبة من مكة ، وارتبطت بها ارتباطا اقتصاديا وثيقا ، فقد كان تجار قريش يستثمرون أموالهم فى الطائف ، كما كان حجاج مكة يعتمدون على موارد الطائف الزراعية . كما كانت الطائف مثلها فى ذلك مكة ، معقلا للوثنية ، وكان بعض العرب يحجون إلى (اللات) مثلما يحجون إلى الكعبة فى مكة . كما كانت قبيلة ثقيف قد نجحت فى السيطرة على شئون الطائف ، وكونت دويلة مستقلة فى سياستها واقتصادياتها ، مثل قريش فى فى مكة ، فلم تسمح لليهود أن يعيشوا بين ظهرانيها .

ولذا كانت يثرب (المدينة المنورة بعد هجرة الرسول) المكان المختار الذى تقصده القبائل اليهودية النازحة من الشام . وكان يسكنها حينئذ العمالقة (أو العماليق) ، وهم قبائل عربية قديمة من نسل عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وكان قد ضعف شأنهم عبر السنون ، فلم يكن فى إمكانهم مقاومة هذه القبائل اليهودية القادمة أو منعهم من الإقامة فى مدينتهم ، ولذا نجح اليهود فى التغلب على هؤلاء العمالقة والاستقرار فى يثرب . وقد وصف أبو الفرج الأصفهانى[1] تغلب اليهود على أهل يثرب ، فقال : « كان يسكن المدينة فى أول الأمر ، قبل بنى إسرائيل ، قوم من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل غزو وبغض شديد » .

قدمت إلى يثرب ثلاث قبائل يهودية ، هى بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ، واستقرت بها ، وبدأت تعمل على أن تقيم فيها إقامة دائمة وتتأقلم بالبيئة الجديدة ، ورأى اليهود أنه لتحقيق مصالحهم المـــادية الاقتصادية ، لابد من أن يقتبسوا من العرب بعض نظمهم الاجتماعية ، فعاشوا فى ظل القبيلة ، التى كانت حينئذ الوحدة السياسية والاجتماعية فى بلاد الحجاز ، واتخذ الجيل الثانى من اليهود أسماء عربية ، وعملوا على إجادة اللغة العربية ، حتى أنه ظهر من بين اليهود شعراء ، مثل السموءل ابن عادية .

كانت لغة اليهود فى بلاد العرب هى اللغة العربية ، ولكنها لم تكن عربية خالصة ، بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية ، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركا تاما ، بل كانوا يستعملونها فى صلواتهم ودراساتهم ، فكان من الضرورى أن يدخل فى لغتهم العربية بعض الكلمات العبرية[2] .

---

(١) الأغانى جـ ١٩ ص ٩٤ .

(٢) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٢٠ .

تميزت مدينة يثرب بخصوبة أرضها ووفرة آبارها وعيونها ، مما جعلها من أخصب بقاع بلاد الحجاز وأكثرها إنتاجا زراعيا ، مما أتاح لليهود فرصة ممارسة نشاط اقتصادى واسع النطاق . فاشتغلوا بالزراعة ، والصناعة والتجارة . أما الزراعة ، فقد امتلكوا مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية استثمروها فى الزراعة على نطاق واسع ، وكان الجزيرة العربية القاحلة فى حاجة ماسة إلى هذه الغلات الزراعية ، وأصبح الإنتاج الزراعى ليثرب منافسا لغلات مدينة الطائف . أما الصناعة ، فقد اتجه اليهود إلى صناعة الآلات الزراعيـــة التى تلزمهم فى زراعة ضيعاتهم ، لزيادة إنتاجهم الزراعى ، ولتعويضهم عن نقص الأيدى العاملة فى الزراعة ، فقد كان المماليك ، سكان يثرب الأصليين ، لايميلون إلى العمل بالزراعة ، وظل الأمر كذلك حتى قدوم قبيلتى الأوس والخزرج ، كما سنرى . إلى جانب هذه الصناعة ، قامت صناعة الأسلحة على نطاق واسع ، فقد انصرفت القبائل العربية إلى حروب قبلية دامية مستمرة ، وأصبحت فى حاجة دائمة إلى المزيد من الأسلحة ، ووفر اليهود لهذه القبائل حاجاتها من الأسلحة المختلفة ، وكانوا يبيعون إنتاجهم للفريقين المتنازعين على السواء ، مما زاد من حدة الصراع القبلى ، وسالت الدماء فى بلاد الحجاز . كما عمـــل اليهود فى الصناعات الذهبية ، فأنتجوا كثيرا من المصوغات والحلى الذهبية ، واشتهرت قبيلة بنى قينقاع بصفة خاصة بهذا النوع من الصناعة ، وكان لها سوق كبيرة تحمل اسمها[1] أما التجارة ، فقد حاول يهود يثرب منافسة مكة فى نشاطها التجارى ، ولكنهم أخفقوا فى ذلك تماما ، فقد نجحت قريش فى أن تمسك بزمام النشاط التجارى ، فى بلاد الحجاز ، وكان لها رحلتاها المشهورتان ، رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، كما امتلكت كثيرا من

---

(١) المقريزى : إمتاع الأسماع جا س ١٠٥ .

القوافل وسيطرت على طرق التجارة . ولذا اقتصر نشاط اليهود التجارى على الاتجار فى إنتاجهم الزراعى والصناعى .

كان سد مأرب فى بلاد اليمن قد تصدع ، واغرقت الميـــاه الأراضى الزراعية ، وكانت الزراعة فى مقدمـــة الموارد الاقتصادية لأهالى اليمن ، واضطرت كثير من القبائل اليمنية إلى النزوح عن البلاد ، إلى اماكن متفرقة . وقدمت إلى يثرب قبيلتان يمنيتان ، هما الأوس والخزرج . وسمح اليهود لهما بالإقامة فى يثرب ، فقد كان اليهود فى حاجة إلى أيدى عاملة رخيصة لتعمل فى ضيعاتهم الزراعية ، وفى مصانعهم ، وفى قوافلهم التجارية . ولكن الأوس والخزرج أرادوا ضمانا يضمن لهم حسن معاملة اليهود لهم دائما ، فطلبوا من اليهود ان يعقدوا معهم تحالفا يبذلون فيه الأمان ويضمنون لهم حسن الجوار ، فتحالفوا وتعاقدوا .

ومرت السنوات ، وثبتت أقدام الأوس والخزرج فى يثرب ، واتسع نطاق نشاطهم الاقتصادى ، وبدأوا يعملون على التحرر من سيطرة اليهود عليهم ، والاستقلال بهذا النشاط الاقتصادى ، وأدرك اليهود أن عرب الأوس والخزرج قد أصبحوا منافسين خطيرين لهم فى يثرب ، ولذا أقدم اليهود على نقض ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب اليمنيين من تحالف وتعاقد .

ثم كانت حادثة ألهبت نيران العداء بين العرب واليهود ، وهى اقدام مالك بن العجلان ، من الأوس ، على قتل (الفطيون) ملك اليهود[٢] .فقد كان هذا الملك فاجرا فاسقا، يرغم الناس على الا تتزوج امرأة إلا ويدخل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٤٠١ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق ج١ ص ٤٠١ - ٤١٩ .

بها قبل زوجها . وأدت هذه الحادثة إلى بداية الصدام الحربى بين اليهود وعرب الأوس والخزرج ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك ، أولها حرب سمير ، ثم توالت الحروب ، فكان يوم السراة ، وحرب الحصين بن الاسلت وحرب ربيع الظفرى ، وحرب فارع ، وحرب حاطب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع ، وحرب الفجار ؛ ويوم معبس ومضرس . ويوم الفجار الثانى ؛ ويوم بعاث .

بدأ الصراع بين العرب واليهود ، وكان بنو قريظة وبنو النضير أكثر القبائل اليهودية عداء للعرب ، مما اضطر العرب للاستنجاد بأخوتهم فى العروبة ، وهم العرب الغساسنة المستقرون فى إمارة لهم بالشام على أطراف الدولة البيزنطية ، ولبى الغساسنة نداء القومية العربية) ، وهرعوا يقفون إلى جانب أخوانهم عرب يثرب فى صراع اليهود[1] .

أدرك اليهود أن خير وسيلة يتغلبون بها على العرب ، وهو القضاء على ذلك الاتحاد الوثيق الذى لمسوه بين قبلتى الأوس والخزرج ، فبدأوا سياسة الدس والوقيعة بين القبيلتين ، ونجح اليهود فيما سعوا إليه ، فبدأ العداء بين القبيلتين، مما بدد قوتها وأضعف موقفهما ضد العدو المشترك، أى اليهود وكان اليهود يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة، حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها ، فيحتفظون من دون القبيلتين بالسيادة واحتكار الموارد الاقتصادية

انتصرت الخزرج على الأوس ، وقصدت الأوس قبيلة قريش تطلب معاونتها ، ولكن قريشا كانت قبيلة تجارية فحرصت على أن توجه نشاطها واهتمامها إلى نشاطها الاقتصادى . وألا تزج بنفسها فى ذلك الصراع القبلى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٥ وما بعدها ، السمهورى : وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٢ وما بعدها .

الدائر فى يثرب ، ولذا امتنعت قريش عن مساعدة الأوس ، فاضطرت هذه القبيلة العربية إلى محالفة أعداء الأمس ، اليهود ، فتحالفت مع بنى قريظة وبنى النضير .

ودارت حرب عنيفة تسمى (فجار يثرب) أو (فجار الأوس والخزرج) أنتهت بانتصار الأوس ، ثم اتفق الفريقان على الصلح وإقامة حكومة مشتركة تنظم العلاقات بين أهل يثرب ، واختاروا عبد الله بن أبى بن سلول ملكا عليهم جميعاً ولكن هذا المشروع لم يكتب له النجاح فقد هاجر الرسول الكريم والمسلمون فى ذلك الوقت من مكة إلى يثرب[1].

موقف عرب الجاهلية من اليهودية :

لم يقبل العرب فى الجزيرة العربية ، فى العصر الجاهلى ، على اعتناق العقيدة اليهودية ، رغم أنها عقيدة سماوية ، وهى - قبل تحريفها - أفضل كثيرا من الديانات الوثنية التى سادت أرجاء الجزيرة العربية ، ورغم أن اليهودية كما يرى المؤرخ (أرنولد)[1] تلائم الجنس السامى والعقلية السامية . ويرجع عدم إقبال العرب على اعتناق اليهودية إلى عدة أسباب :

أولا : لم يهتم اليهود قديما وحديثا ، بالتبشير بدينهم ، فهم يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأن سائر الشعوب غير جديرة بالدخول فيما دخلوا فيه ، ولذا وضعوا العراقيل أمام كل من يرى أن يتهود . وفى ذلك يقول إسرائيل ولفنسون[2] : الذى يقرأ تاريخ اليهود ، يعلم أن الأمة الإسرائيلية لم ترغب فى اعتناق الأمم دينها ، وكان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظورا على اليهود .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٠ .
(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٦٧ .

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز فاليهودية كما فهمها هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه . وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها ، إلا إذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها .

ثانياً : كانت التوراة والتلمود تكلف الإنسان تكاليف صعبة ، وتربطه بتقاليد كثيرة لم يألفها ، فلم يستطع العربى الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة ، وكان من العسير على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة ، وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية .

ثالثاً : سخط العرب على احتكار اليهود لموارد البلاد الإقتصادية ، فقد كون اليهود أرستقراطية دينية مادية فى وقت واحد ، وخاصة أن العرب كانوا ينظرون إلى هؤلاء اليهود باعتبارهم غرباء دخلاء ، نزحوا إلى بلادهم العربية فأقاموا فيها بالقوة ، وزاحموهم فى أرزاقهم ، وسيطروا على إقتصاديات الجزيرة العربية . يذكر (هاريمان) أن اليهود تمكنوا بما كان لهم من مال وخبرة فى جمعه ، وفى أعمال الصيرفة والاحتكار واستثمار الأموال ، من تولى الوظائف التى تسيطر على الشئون الإقتصادية فى الدولة الحميرية العربية باليمن ، كما تدخلوا فى تنظيم ميزانيتها ، فسيطروا بذلك على المواضع الحساسة فى جسم الدولة ، وعلى الملوك حتى أدخلوا فى نفوسهم بغض دياناتهم العربية المتوارثة ، وجعلوا هؤلاء الملوك يعتنقون اليهودية .

رابعاً : كان العرب ، وخاصة فى اليمن ، ينظرون إلى اليهود باعتبارهم عملاء للنفوذ الفارسى الأجنبى . فقد اعتمد الفرس على اليهود كعملاء لهم . ولذا اعتبر بعض العرب انتشار اليهودية يعنى اتساع النفوذ الفارسى فى بلاد العرب .

خامساً : كان اليهود لا يتصفون بصفات خلقية ونفسية طيبة تجعل العرب يعجبون بأشخاصهم فيقبلون على اعتناق دينهم ، فقد تكرر نقضهم للعهود ، وتكررت خيانتهم وغدرهم إلى جانب التجائهم إلى أساليب ملتوية فى معاملاتهم المادية والاقتصادية .

وفى الختام ، نقول أنصافاً للحق ، أنه بالرغم من أن هؤلاء اليهود لم تكن لهم الدراية الكافية أو التعمق فى دراسة كتبهم ودينهم، وبرغم تحريف عقائدهم ، وبرغم تحفظهم إزاء أغلبية وثنية ، فإنهم أعطوا للعرب فكرة عن الدعوة اليهودية ، دعوة التوحيد وإنكار الوثنية ، مما له أثره وخطره فى زلزلة العقيدة الوثنية السائدة، والتمهيد للدين الجديد الرشيد ، أى الإسلام[1] .

---

(١) محمد عطا : الدعوة التحريرية الكبرى ص ٢٠ .

٤ — موقف اليهود من الإسلام والرسول

بيعة الأوس والخزرج للرسول :

كان عرب يثرب من الأوس والخزرج يسمعون من حلفائهم يهود المدينة بنى قريظة وبنى النضير أن نبيا سيبعث ويتوعدهم اليهود به إذا حاربوهم . فلما قدم بعض أفراد من الأوس والخزرج لزيارة البيت الحرام فى السنة الحادية عشرة من البعثة ، رأوا الرسول يدعو الناس إلى الله عز وجل ، فلاحظوا أمارات الصدق لامحة عليه . وقال بعضهم لبعض : والله هذا الذى توعدكم اليهود به . فلا يسبقنكم إليه . ولما قدم بعض الأوس إلى مكة يطلبون محالفة قريش ضد مواطنيهم من الخزرج ، أتاهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام فقال أحدهم ، وهو إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئنا له . وعاد وفد الأوس إلى المدينة دون أن يعقدوا حلفا مع قريش(١).

وفى موسم الحج التالى ليوم بعاث الذى هزمت فيه الخزرج أمام الأوس ، خرج الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية كعادته فى من الحج وعند العقبة بمنى التقى بستة رجال من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام فلبوا دعوته ، وعادوا إلى المدينة يدعون قومهم إلى الإسلام (٢)

وفى العام التالى قدم إلى مكة أثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فبايعوا الرسول عند العقبة بمنى على الإسلام ، وبعث الرسول معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن الكريم وشعائر الإسلام . ولم يمض عام حتى أصبحت كل أسرة من عرب المدينة تضم فريقا ممن اعتنق الإسلام على يد مصعب(٣).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٥ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٦ — ٣٧ .

ثم جاء موسم الحج التالى فى السنة الثالثة عشرة من البعثة . وخرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين قاصدين مكة ، وقد عزموا على دعوة الرسول للهجرة إلى يثرب وبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

أدت عوامل دينية ومادية وسياسية إلى إقبال أهل يثرب على الإسلام وتأييد محمد ، فمن الناحية الدينية كان عرب يثرب كثيراً ما يسمعون من اليهود أن نبيا يبعث . هذا إلى أنه لم يكن للأوس فائدة مادية من وراء التمسك بالوثنية ، كما كان لقريش فى مكة . ومن الناحية السياسية كانت علاقة اليهود بعرب يثرب قد أصبحت عدائية[1] ، كما كان عرب يثرب منقسمين على أنفسهم ، وقامت حروب طويلة بين الأوس والخزرج ، وكان من نتائجها خروج حجاج القبيلتين إلى الرسول يبايعونه ويدعونه إلى مدينتهم ويتعهدون بحمايته ، فقد وجدوا فى الإسلام سبيلا إلى جمع شملهم وتوحيدهم .

تبشير اليهود بظهور نبى جديد .

كان اليهود والنصارى قبل ظهور الإسلام يتنازعون النفوذ الأدبى فى الجزيرة العربية ، ويتنافسون فى كسب احترام العرب ، ويعتز كل منهم بدينه ، وكان اليهود يستنصرون على المشركين فى الجاهلية ويقولون : اللهم أنصرنا بنبى آخر الزمان . ومن سألهم العرب عنه قالوا : إن نبيا قد قرب زمانه سيكون لمن أتبعه العز والنصر إلى يوم القيامة . ويتوعدون العرب باتباعه والاستنصار به عليهم[2] .

وكان اليهود ، وخاصة أحبارهم ، يعلمون من كتابهم أن نبيهم سيبعث فى

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ٧١ .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٠ .

آخر الزمان تكون الجزيرة العربية داره وقراره ، ويحدثنا التاريخ عن (أسعد بن كرب) ملك اليمن الذى قدم إلى يثرب لينتقم من أهلها لأنهم قتلوا ابنه غيلة . وبينما ابن كرب ماض فى القتال والانتقام ، إذجاءه حبران من أحبار اليهود ، من بنى قريظة ، وكانا على جانب كبير من العلم ، فقالاله . أيها الملك ، لاتفعل فإنك إن أبيت إلا ماتريد حيل بينك وبينها ولم تأمن عليك عاجل العقوبة . وأبدى الملك دهشته وسأل الحبرين : ولم ذلك ؟ فأجابا : إن المدينة ، أيها الملك ، ستكون مقر هجرة نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان ، تكون داره وقراره وتأثر الملك بعبارات الحبرين فانصرف عن المدينة .

وتذكر الروايات أنه عندما ولد محمد صلى الله عليه وسلم كان فى مكة يهودى يدعى يوسف ، فقال لبعض وجوه قريش : هل ولد فيكم الليله مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلم . قال : احفظوا ما أقول لكم وُلد فيكم هذه الليلة نبىّ هذه الأمة الأخيرة . هو منكم على كتفيه شامة فيها شميرات متواترات كأنهن عرف فرس وتلك هى خاتم النبوة وتوجه الجميع إلى بيت آمنة وقالوا لها : أخرجى إلينا ابنك فأخرجته ، وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة ، فخر مغشيا عليه ، فلما أفاق قالوا : ويلك مالك ؟ قال : ذهبت النبوة من بنى إسرائيل ! !

وامتد التبشير بنبوة محمد إلى بلاد اليمن ، وتوقع أهلها موقف اليهود العدائى من الرسول فتروى الروايات أن عبد المطلب ، جدّ الرسول كان قد توجه إلى اليمن على رأس وفد لتهنئة سيف بن ذى يزن الحميرى لنجاحه فى إجلاء الأحباش عن بلاد اليمن فقال سيف لعبد المطلب . وُلد ولداً اسمه محمد ، يموت أبوه وأمه ، ويكفله جدّه وعمه ، يخمد النيران (أى نيران المجوس) ويكسر الأوثان ، فاحتفظ بابنك ، واحذر عليه من اليهود فإنهم أعداؤه ، واطو ما ذكرته لك عن قريش لئلا تدخلهم النفاسة

فينصبون له الحبـــائل وهم فاعلون ذلك وأبناؤهم ، ويثرب دار ملكه واستحكام امره ، وموضع قبره .

وهكذا كان أحبار اليهود وغيرهم يعلمون من امور رسالة محمد ما يعلمون ، ومع هذا فقد ناصبوه العداء فى الوقت الذى كان فيه أحبار النصارى مثل بحيرى الراهب النصرانى ، يخافون على محمد من اليهود ، إن استطاعوا أن يصلوا إليه فى صغره وطفولته ، وما قبل رسالته[1]

فقد رحل محمد مع عمه أبو طالب فى رحلة تجارية ، ومروا بمدينة بصرى حيث التقوا بالراهب بحيرى ، وحذّر الراهب أبا طالب ، فقال له : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه من اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم[2]

وكان يهود العرب يتوقعون ظهور نبىّ ، وكانوا يتوعدون به الوثنيين ، ولكنهم كانوا يظنون أن النبى يظهر من بين بنى إسرائيل ، وحينما هاجر محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى يثرب قال يهود بنى قينقاع ويامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل وقعة قريش ، فوالله إنكم لتعلمون أنى رسول الله ، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم[3]

ونحن نجد فى القرآن الكريم آيات مباركة تؤيد فكرة التبشير بنبىّ جديد ، يأتى بكتاب منزل . وكان أهل الكتاب ينتظرون ظهـــور نبى ليهديهم ، ولما ظهر هذا النبى الموعود لم يهتدوا بهديه جاء فى سورة البقرة :

---

(١) برانق والمحبوب : محمد واليهود ص ٢٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٤٢٦ ، المقريزى : إمتاع الأسماع جـ١ ص ١٠٤ .

(وَلمّا جاءهُمْ كتابٌ من عندِ اللهِ مُصدّقٌ لما مَعَهُمْ وكانُوا من قبْلُ يَستَفْتِحُونَ على الذين كفروا فلمّا جاءهُمْ ما عرفوا كفروا به فلعنةُ اللهِ على الكافرينَ) .

اسباب عداء اليهود للرسول والاسلام

كان اليهود مؤمنين بصدق رسالة محمد ، فقد كانوا دائماً يتنبأون بنبى جديد وعقيدة جديدة . بل كانت نبوءاتهم هذه عاملا ساعد على انتشار الإسلام . قال عاصم بن عمر بن نقاوة : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، أنا كنا نسمع من رجال يهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب الزمان بنبيٌّ يبعث الآن نقتلكم معه قتلَ عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع منهم ذلك فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا .

أشار القرآن الكريم إلى تبشير التوراة والإنجيل ببعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى الآيات الكريمة (الذين يتبعون الرسُولَ النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائثُ ويضع عنهم إصرهم والأغلالَ التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزرُوهُ ونصروهُ واتّبعوا النُورُ الذى أنزل معه أولئك هم المفلحونَ) .

أبدى اليهود عداءهم للإسلام منذ أول ظهوره ، فقد أدركوا أنه دين جديد ينافس عقيدتهم اليهودية ، ويضيف منافسا جديدا ، إلى جانب تنافس اليهودية والمسيحية على الزعامة الدينية فى الجزيرة العربية ، كما كان اليهود يعلمون أن محمدا ينتسب إلى أكرم بطون قريش ، فهو إلى ذلك أقرب إلى

نفوس العرب الذين يبغضون اليهود ويضيقون ذرعا بافتخارهم عليهم بالعلم وبالتوراة وكتب بنى إسرائيل ، ولذلك كان أهل المدينة أسرع إلى قبول دعوة محمد والانطواء تحت لواء ذلك النبى العربى الكريم . وقد كان اليهود يظنون أن النبى المنتظر سيظهر من بينهم فيملكون به أئمة العرب .

صار اليهود فى عداوة مع الرسول على غير هدى ، وأخذوا يصرحون بالشك فى رسالته لا لشىء سوى أنه عربى ، والنبوة فى نظرهم مقصورة عليهم . ولأنه أيضاً بعث فى الحجاز والنبوة فى رأيهم إنما تكون فى الشام موطن الأنبياء (١)

لمَّا رأى اليهود ازدياد عدد المسلمين وانتشار الإسلام يوما بعد يوم وأن العرب يقبلون على محمد والإسلام ، وأن جميع مصالح اليهود القائمة على أرستقراطية دينية فرضوها على العرب بقولهم أنهم شعب الله المختار وأبناء الله وأحباؤه ، أصبحت مهدَّدة باستقرار لهؤلاء العرب . لما رأوا ذلك أيقنوا أنه لاسبيل للمحافظة على هذه المصالح وحماية نفوذهم وأرستقراطيتهم الدينية إلا بالوقوف فى وجه الإسلام والرسول والمسلمين .

وهكذا كان اليهود يكرهون محمداً وينظرون إليه وإلى الإسلام بعين الخوف منذ اللحظة الأولى من هجرته من مكة إلى يثرب . ثم ازداد خوفهم منه وظهر حسدهم له عندما رأوا الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين بالدسّ والإرجاف . ثم بالمراء والجدل فيا يعلمون ومالا يعلمون . وإذا سئلوا عن شىء مما فى كتبهم حرّفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق الباطل ليكسبوا ولاء المشركين

---

(١) جمال سرور : قيام الدولة العربية ص ١١٤ .

بالغض من شأن الإسلام لا لسبب سوى كراهيتهم للرسول لما اختصه الله به من الرسالة[1].

صور الله سبحانه وتعالى موقف اليهود فى هذه الآيات الكريمة (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)[2] ، (ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير)[3].

موقف يهود المدينة من هجرة الرسول والمسلمين :

كان عرب يثرب (المدينة بعد الهجرة) ، سواء من الأوس أو الخزرج يسمعون من حلفائهم اليهود ، بنى قريظة وبنى النضير ، أن نبيا سيبعث ويتوعدهم اليهود به إذا حاربوهم، فلما قدم بعض أفراد من الأوس والخزرج لزيارة البيت الحرام فى السنة الحادية عشرة من البعثة رأوا الرسول يدعو الناس إلى الله ، فلاحظوا أمارات الصدق لائحة عليه ، وقال بعضهم لبعض : والله هذا الذى توعدكم اليهود به ، فلا يسبقنكم إليه ، ثم انصرفوا إلى بلادهم .

ولما قدم بعض الأوس إلى مكة يطلبون محالفة قريش ضد مواطنيهم من الخزرج . أتاهم الرسول ودعاهم إلى الإسلام ، فقال أحدهم ، وهو إياس بن معاذ : هذ والله خير مما جئنا له ، وعاد وفد الأوس إلى المدينة دون أن يعقدوا حلفا مع قريش[4].

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ١٣٢ .
(٢) سورة البقرة ٩٠ .
(٣) سورة البقرة ١٠٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ٢ ص ٣٥ .

وفى موسم الحج التالى ليوم بعاث الذى هزمت فيه الخزرج أمام الأوس خرج الرسول يعرض نفسه على القبائل العربية كعادته زمن الحج . وعند العقبة بمنى التقى بستة رجال من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام فلبوا دعوته وعادوا إلى المدينة يدعون قومهم إلى الإسلام(١) وفى العام التالى قدم إلى مكة إثنا عشر ، منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، فبايعوا الرسول عند العقبة بمنى على الإسلام . ثم جاء موسم الحج التالى فى السنة الثالثة عشرة من البعثة ، وخرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصا من المسلمين قاصدين مكة ، وقد عزموا على دعوة الرسول للهجرة إلى يثرب وبايعوه على أنه نبيهم وزعيمهم .

كان بالمدينة عند هجرة الرسول والمسلمون الجدد من الأوس والخزرج وقد أطلق عليهم اسم الأنصار . وبعض مشركى هاتين القبيلتين ، واليهود ، ثم وفد عليهم المهاجرون بعد أن تركوا أملاكهم وأموالهم فى مكة .

عمل الرسول عليه الصلاة والسلام ، على توحيد المسلمين والعرب فى المدينة ، والقضاء على العداء القديم . فآخى بين أصحابه من المهاجرين والأنصار على الحق والمؤاساة(٢) ، وكانوا يتوارثون بهذا الإخاء إرثا مقدما على القرابة(٣) .

أما بالنسبة لليهود ، فقد حرص الرسول على تحقيق أحد أمرين: إما أن يجتذب اليهود المقيمين بها إلى الإسلام . أو يكتسب صداقتهم وإخلاصهم مع بقائهم على دينهم . وتحقيقا لهذه الغاية . كتب كتابا يبين فيه مالهم من حقوق وماعليهم من واجبات .

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٣٨ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٦ — ٣٧ ، المقريزى : امتاع الأسماع ص ٤٩ .
(٣) امتاع الأسماع ص ٥٠ .

كتب محمد بين المهاجرين والأنصار كتابا واعـــد فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم. وجاء فى هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس . . . وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة(١) . غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وأن سلم المؤمنين واحدة . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس ويهود بنى ثعلبه ولجفنة ولبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف. وأن موالى ثعلبة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد (عليه الصلاة والسلام). وأنه لا ينحجز(٢) على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم. وأن الله على أبر هذا. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ».(٣)

هذه هى الوثيقة السياسية التى وضعها الرسول تقرر حرية العقيدة

---

(١) الأسوة : المساواة .
(٢) أى لا ينثنى جرح على ثأر .
(٣) اقرأ نص الكتاب فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها .

وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة الحياة وحرمة المال وتحريم الجريمة . وهى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى العالم حينئذ ، هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد وتعبث فيه يد الظلم فساداً. ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع ، إلا أنهم مالبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبى صحفا مثلها . وكذلك أصبحت المدينة وما وراءها حرما لأهلها عليهم، أن ينصحوا عنها ، ويدفعوا كل عادية عليها . وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية[1]

أبطل هذا الكتاب ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من المعاهدات الظالمة التى تبث روح الفرقة بين أهلها . فقد أراد الرسول أن يجعل من المدينة وطناً واحداً وأن يجعل من الجميع أمة واحداً ، تجمعها جامعة الوطن ، ولا يفرق بينها إختلاف فى الدين فتخف الأحقاد ويرفرف عليهم الإخاء. وفتحت هذه المعاهدة فتحا جديدا فى السياسة الدينية . فأقرت حرية العقيدة وحرية الرأى ، وحرمة الوطن ، وحرمة الحياة . وحرمة النفس ، وحرمة المال . ولم يحدث هذا من قبل فيما بين أهل الأديان . بل كان هناك الاضطهاد والظلم والتفرقة فى الحقوق والتفاوت بين الأفراد والطبقات .

حاول الرسول أن يجذب اليهود إلى الإسلام ، بل إن المؤرخ (توماس أرنولد)[2] يذهب إلى أن اتخاذ بيت المقدس قبلة للمسلمين فى الصلاة ـ قبل اتخاذ الكعبة ـــ كان المقصود به استمالة اليهود . وقد كان المسلمون قبل فرض صيام رمضان يصومون يوم عاشوراء ، وهو اليـــوم الذى أنجى الله موسى وبنى إسرائيل وأغرق فرعون وجنده . وقد حاول محمد أيضاً

---

(١) هيكل : حياة محمد ص ٢٢٣ .
(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٧ .

استرضاء اليهود بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ومنحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية ، وساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، ولكنهم قابلوا هذه المعاملة الكريمة بالجحود . وأدرك الرسول أن اليهود مصرين على عدائهم ، وأنه لاجدوى من جذبهم إلى الإسلام ، أو الاحتفاظ بدياناتهم على أن يكونوا فى سلام مع المسلمين .

نقض اليهود دائما المعاهدة التى وقعوها مع الرسول ، وأبدوا صوراً كثيرة من العداء والخصام للرسول والمسلمين ، وظلوا يتمسكون بنظريتهم العنصرية التقليدية ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة مقصورة على بنى إسرائيل ، وأن اليهود أرقى عنصرا من العرب . وأرادوا الإستمرار فى احتكارهم للموارد الإقتصادية وما أعتادوه من طمع وجشع .

وكان رسول الله كريما فى معاملة اليهود إلى أبعد حدودالكرم . فكان يصابرهم ويصبر عليهم ، ويغض الطرف عن كيدهم ، ويحترم دينهم . ويساوى بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات . وكان لايعاتبهم إلا بمقدار ما يكف أيديهم عنه ، وكان يحكم فيهم من يختارونه بأنفسهم . وصفوة القول أن معامله الرسول إياهم كانت أيسر وأخف من معاملته لقريش وغيرها من القبائل العربية ، باعتبار اليهود أصحاب دين سماوى .

إزداد المسلمون شوكة وقوة . وحينئذ بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه . لقد عقدوا معه عهدا ، وكانوا يطمعون فى أن يضموه إلى صفوفهم ، وفى أن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة . ولكن الإسلام مضى فى طريق النجاح والإنتشار . وأصبح المسلمون قوة تخشى قريش منها . وأقبل بعض اليهود ، مثل عبد الله بن سلام ، على اعتناق الإسلام ، فخشى اليهود أن يتسع إنتشار الإسلام بين القبائل اليهودية ، فبدأ اليهود يشنون العداء ضد الإسلام والرسول والمسلمين .

الطابور الخامس فى المدينة

أصبح اليهود ، بلغة عصرنا الحديث ، طابوراً خامساً فى المدينة ، أو شوكة دائمة فى جنب الدولة الإسلامية الوليدة ، وبؤرة تتجمع فيها جرائيم الفرقة، فقد بدأ اليهود يعملون فى الظلام وينسجون خطوط العديد من المؤامرات والدسائس ، وأعلنوا حربا خفية سرية ، كانت أشد خطورة من الحرب العلنية .

تحالف اليهود مع مشركى الأوس والخزرج ، ومع من أسلم منهم نفاقا . وبدأ اليهود حرب جدل ، أصبحت أشد من حرب الجدل التى كانت بين الرسول وبين قريش فى مكة . وفى هذه الحرب التى شنها اليهود تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين . أقامتها اليهود جميعاً صفوفا متراصة يهاجمون بهـــا محمداً ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار .

قال ولفنستون فى كتابه عن تاريخ اليهود أنه بعد ثمانية عشر شهراً من الهجرة ، تلبد الجو بين اليهـــود والنبى بسبب المشاحنات العلمية المتبادلة والاحتكاك بين الفريقين فى الشوارع ، وأنه عند ذلك بدأ القرآن يذكر بما ارتكبه أجداد اليهود من الجرائم . ونجم عن ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم . وشعر النبى أنه لم يحقق الفكرة التى كان يسعى إليها من تأليف قلوب اليهود والعرب . وإيجاد أمة مؤلفة من جميع العناصر .

بدأ يهود المدينة يبث بذور العداء والخصام بين المسلمين فى المدينة فكانوا يثيرون البغضاء والأحقاد بين المهاجرين والأنصار ، ويوقعون بين فريقى الأنصار الأوس والخزرج . فيذكرونهم بما كان بين القبيلتين من معارك ، وخاصة يوم بعاث الذى انتصرت فيه الأوس على الخزرج . كما أعلن اليهود تأييدهم لقريش وحرضوها على قتال الرسول . وقام شعراء

لم تثمر معاملة محمد الطيبة لليهود ، فقد ظلوا غير مؤمنين بالإسلام كما عاملوا الرسول والمسلمين بقسوة وجفاء . . ونظمت أسماء بنت مروان ، الشاعرة اليهودية ، كثيراً من القصائد فى هجاء الرسول ، كما أنشد الشاعر اليهودى كعب بن الأشرف عدة قصائد فى مكة بعد موقعة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم فى تلك المعركة ، بل بلغ من وقاحته أن أنشد هذه القصائد عند عودته إلى المدينة ، وفى حضور بعض المسلمين ، مما أثار غضب الرسول فقال يوماً : من لى من ابن الأشرف ؟ وبعد عدة أيام دفع كعب حياته ثمنا لقصائده فقد قتله بعض الأنصار من قبيلة الأوس.

(٢) بنو قينقاع .

كانت قبيلة بنى قينقاع أول قبيلة يهودية تبدأ الصراع الإيجابى وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل بينه وبينهم أمانا وشرط عليهم شروطاً منها ألا يظاهروا عليه عدوا . فلما قدم من بدر ، أظهر بنو قينقاع البغى والحسد ونقضوا العهد الذى عقده معهم(١). فنزلت الآيات الكريمة تخاطب الرسول (وأما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين) . فجمعهم الرسول بسوق بنى قينقاع وقال . « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يوقع الله بكم مثل موقعة قريش . فو الله أنكم لتعلمون أنى رسول الله . تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم . » فقالوا : « يامحمد لايغرنك من لقيت ، أنك قهرت قوما أغمارا وأنا والله أصحاب الحرب ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا(٢).

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ٦٨
(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٤٢٦

وهكذا أبدى بنو قينقاع عداءهم للرسول . ثم حدث ما أثار غضب الرسول على بنى قينقاع ، فكان هذا الحدث شرارة الحرب . فقد حدث أن فتاة عربية من قبيلة عربية تجاور المدينة كانت قد اعتادت أن تجلب اللبن إلى المدينة ، وبينما هى يوما فى الحى الذى يسكنه بنو قينقاع . وهى إحدى القبائل اليهودية الثلاث ، إذ اعترض طريقها بعض شباب اليهود الذين بهرهم جمالها فطلبوا منها أن تكشف الخمار عن وجهها ثم غافلها أحد الصياغ وربط الخمار بالمقعد الذى كانت الفتاة تجلس عليه بحيث إذا هبت واقفة انكشف وجهها ، وقد تم له ما أراد ، وتعالت ضحكات الشباب اليهود . ووقفت الفتاة وسطهم حائرة مضطربة وشاهد أحد المسلمين موقف الفتاة الحرج ، فيتقدم شاهرا سيفه وأغمده فى صدر الصائغ اليهودى فهجم الشباب اليهودى على المسلم وقتلوه . واندفع المسلمون بأسلحتهم كما تزود بنو قينقاع اليهود بسلاحهم ، ورأى الرسول أن يقاتل هؤلاء اليهود فقد نقضوا العهد الذى عقده معهم(١)

لم يكن لبنى قينقاع حصون ولا معاقل وإنما كانوا تجارا وصياغا وهم حلفاء لعبد الله ابن أبى بن سلول ، فسار إليهم الرسول وحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى اضطروا إلى النزول على حكمه الذى تضمن أن تكون أموالهم غنيمة له ، وتكون النساء والذرية لهم . ثم أخلى سبيلهم بعد أن شفع فيهم عبد الله بن أبى وامرهم بالجلاء عن المدينة ، فساروا صوب شمال الحجاز حتى نزلوا بأذرعات(٢).

---

(١) ابن هشام جـ٢ ص ٤٢٧ ، أرفنج : حياة محمد (ترجمة المؤلف) ص ١٥٨
(٢) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز

(ب) بنو النضير .

ثم جاء دور قبيلة بنى النضير ، فقد فرحت القبائل اليهودية لما نال المسلمين فى موقعه أحد من قريش ، مما شجعهم على الغدر بالمسلمين قدم على الرسول وفد من مدينتى (عضل) و (القارة) يعلنون إسلامهم ويطلبون من الرسول أن يبعث معهم نفرا من الصحابة يفقهونهم فى الدين ويعلمونهم شرائع الإسلام . فبعث الرسول معهم ستة من المسلمين ولكن خلال الرحلة عند مرورهم بمنطقة الرجيع[1] غدروا بالمسلمين وقتلوا اربعة منهم ، واسروا أثنين وحملوهما إلى مكة حيث سلموهما . إلى القرشيين فقتلوهما .

وتكررت هذه الخيانة . فقد قدم بعض أهل نجد على الرسول وتظاهروا برغبتهم فى الإسلام وطلبوا من الرسول ان يمدهم ببعض المسلمين ليحموهم من أعدائهم فبعث الرسول بجماعة من المسلمين يبلغ عددهم أربعين مسلما من الأنصار وكانو يعرفون بالقراء لحفظهم القرآن .

وعند بئر معونة ، على مسيرة أربعة أيام من المدينة ، هاجم بنوسليم المسلمين وقتلوهم عن آخرهم عدا رجل واحد هو عمرو بن أمية الذى استطاع الفرار وهرع إلى المدينة . وفى طريقه إليها التقى برجلين يهوديين من بنى عامر ، غير مسلحين فظن أنهما ينتميان إلى أعدائه وأراد أن يأخذ بثأر إخوته المسلمين القتلى ، فقتل هذين اليهوديين ، وطالب بنو عامر بالدية ورأى الرسول أن يقوم بنو النضير ، وهم يهود أيضا ، بدفع الدية لبنى عامر فقد كانوا على جانب كبير من الثراء : ويمتلكون حصنا يسمى (زهرة) على بعد ثلاثة أميال من المدينة . وكان بنو النضير قد عقدوا مع الرسول حلفاً عند قدومه إلى المدينة يقضى بالتعاون على أداء الدية ، ودعا الرسول إلى

---

(١) المقريزى : امتاع الاسماع جـ١ ص١٠٥

عقد اجتماع للتباحث فى هذا الأمر ، وتوجه الرسول إلى هذا الاجتماع يصحبة أبوبكر ، وعمر ، وعلى وبعض المسلمين الآخرين وجلس الرسول إلى جنب جدار بيت من بيوت بنى النضير فى انتظار أن يأتوه بالمال . ولكن بنى النضير كانوا قد تآمروا على الرسول واتفقوا على أن يقوم أحدهم بإلقاء صخرة من فوق سطح هذا البيت على الرسول فيقتله . ولكن الله سبحانه وتعالى أعلم رسول الله بالمؤامرة فعاد إلى المدينة من غير أن يعلم أحداً بذلك ، ثم لحق به أصحابه(١) .

أثارت هذه المؤامرة غضب الرسول على بنى النضير ، فطلب منهم الجلاء عن المدينة ، وأمهلهم عشرة أيام يحاربهم بعدها إذا لم يخرجوا ، ولكن عبدالله بن أبى الخزرجى أرسل إليهم سراً يعدهم بمساعدته لهم ، ولكنه لم يستطع أن يبر بوعده كما أن بنى قريظة لم تساعدهم . حاصر الرسول بنى النضير وألقى الرعب فى قلوبهم ، ورأى بنى النضير عجزهم عن الصمود فى قتال المسلمين ، فطلبوا الصلح بعد حصار دام خمسة عشرة يوماً . وصالحهم الرسول على ألا يتعرض لأحد منهم بسوء ، وأن يجلوا عن المدينة ، ولهم ما حملت الإبل من أموالهم ومتاعهم ، وللرسول أرضهم ونخلهم وأسلحتهم(٢) .

غادر بنو النضير المدينة يصحبهم ستمائة بعير نقلوا عليه أحسن ما فى بيوتهم ثم خربوا ديارهم بأيديهم . ورحل بعضهم إلى الشام . ونزل معظمهم بمدينة خيبر وهى مدينة يهودية حصينة على مسيرة أيام قليلة من المدينة(٣) .

صور الله سبحانه وتعالى خروج بنى النضير من المدينة وتخريبهم

---

(١) سيرة بن هشام و : ج ٣ ص ١٩١
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠ — ٣١
(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٨

لبيوتهم فى هذه الآيات الكريمة : (سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ،فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ؛ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم ، فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب . ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليجزى الفاسقين).

كان بنو النضير على جانب كبير من الثراء . ولذا غنم المسلمون كثيرا من الغنائم ، وكانت هذه الغنائم مما افاء الله على رسوله أى أنها خالصة له يضعها حيث يشاء(١) . كما جاء فى القرآن الكريم : (ما افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الاغنياء(٢)) فدعا الرسول الأنصار وذكرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم فى منازلهم ، ثم قال لهم : « ليس لإخوانكم من المهاجرين اموال فان شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعاً وإن شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة » فقالوا : بل قسم هذه فيهم واقسم لهم من اموالنا ماشئت . فقسم الرسول ما افاء الله عليه من اموال بنى النضير على المهاجرين دون الأنصار(٣)

(ج) بنى قريظة

بعد إجلاء بنى النضير ، لم يبق فى المدينة من القبائل اليهودية سوى بنو قريظة ، وكانوا يملكون حصناً منيعاً قرب المدينة . وقد نقضـــوا عهدهم للرسول ، فقد تحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قدموا لغزو المدينة فى غزوة الأحزاب (أو الخندق(٤)) وأدرك الرسول حرج الموقف

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٤
(٢) سورة الحشر آية ٧
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤
(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٩

فكان عليه أن يصدّ القرشيين وحلفاءهم من عبور الخندق ، وكان عليه فى فى الوقت نفسه أن يعمل على تجنب هجوم بنى قريظة وعلى حفظ الأمن داخل المدينة .

وفى ذلك الحين، جاء إلى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض عليه أن يكلفه بأى عمل يقوم به فى جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة . فقال له : خذل عنا فإن الحرب خدعة . فذهب مسعود إلى بنى قريظة وحذرهم ان هزمت قريش نجت بنفسها ، وتركتهم تحت رحمة محمد . ثم نصحهم بألا يطمئنوا إلا إذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرافهم . ثم ذهب إلى كل من قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على نقضهم عهد محمد ، واتفقوا معه على أن يخدعوا له قريشا وغطفان فيأخذون بعض ساداتهم ، على أنهم رهائن ويقدمونهم إلى محمد ليضرب أعناقهم ، فاستعجلت قريش وعد قريظة لها ، فكان فى جوابهم عليهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

وقد فعلت هذه الوقيعة فعلها فى الأحزاب ، وتأكدت قريش وغطفان من غدر القرظيين بهم ، فعزموا على الرحيل . وكان للعوامل الطبيعية أيضا أكبر الأثر فى ذلك ، إذ هبت ريح زعزع عاتية جعلت تكفأ قدورهم وتنزع خيامهم ، فأرغمتهم على الرحيل .

بعد جلاء المشركين ، تفرغ الرسول لعقاب بنى قريظة الذين تحصنوا فى حصن لهم ، فحاصرهم الرسول خمسة وعشرين يوما ، حتى نزلوا على حكمه وسألوا الأوس أصدقاءهم وحلفاءهم ، أن يتوسطوا لدى الرسول ليطلقهم ، كما توسطت الخزرج فى اطلاق حلفائهم بنى قينقاع ، فقالت الأوس : يارسول الله إنهم كانوا موالينا . فقال الرسول لهم : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم رجل منكم قالوا : بلى . قال فذاك إلى سعد بن معاذ وفرح بنو قريظة بهذا الاختيار فقد كان سعد فى الماضى حليفهم . ولكن

خاب أملهم، فقد قال سعد: فانى أحكم بأن تُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذرارى والنساء. ووافق محمد على هذا القرار، فقال: لقد حكمت فيهم بحكم الله[1].

يتهم المؤرخ (واشنجتون أرفنج) سعد بن معاذ بالقسوة ثم قال: «وقد يكون سعد مدفوعا إلى اتخاذ هذا القرار بحنقه وآلامه لما أصابه من جراح فى حرب الخندق، وكأنه أراد الانتقام من بنى «قريظة» ومن اليسير علينا أن نرد على هذا المؤرخ، فقد احتكم سعد بن معاذ إلى التوراة فى القرار الذى أصدره فهى تقول: (وإذا أوقعها الرب إلهك فى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة. كل غنيمتها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إليك).

حفرت الخنادق وضربت أعناق رجال بنى قريظة. كانوا نحو سبعمائة وفى مقدمتهم حيى بن أخطب، وقسم الرسول أموال بنى قريظة وسباياهم بين المسلمين.

اصطفى الرسول لنفسه من سبايا بنى قريظة ريحانة بنت عمرو بن جنافة وعرض الرسول عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب، فقالت يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك. وكانت قد امتنعت عند سبيها عن اعتناق الاسلام وآثرت البقاء على دينها اليهودى فعزلها الرسول. ولكنها مالبثت بعد فترة أن أسلمت، وظلت عند الرسول حتى توفى عنها وهى فى ملكه[2].

---

(١) المقريزى: امتاع الأسماع جـ٢ ٢٤٤

(٢) الطبرى جـ٢ ص٢٥٢

ثم للنبي بالقضاء على بني قريظة السيطرة على المدينة ، وأصبح يأمن فيها على نفسه بعد أن تخلص من العناصر المناوئة ، كما انتفع فقراء المسلمين بصفة خاصة من أنصار ومهاجرين بتلك الأراضي والمنقـــولات التي كان يمتلكها اليهود .

(د) يهود بني خيبر :

على بعد مسيرة خمسة أيام من المدينة تقوم مدينة خيبر ، حيث يسكن اليهود الذين تميزوا بالثراء نتيجة اشتغالهم بالتجارة والزراعة . فقد كانوا يزرعون أرضهم بالحبوب وأشجار النخيل ويمتلكون كثيرا من قطعان الأغنام وعددا من الحصون وبلغ تاريخ تلك المدينة من القدم بحيث أكد أبو الفداء المؤرخ العربي ، أن موسى بعد عبوره البحر الأحمر أرسل جيشا لقتال العمالقة في يثرب وخيبر .

أصبحت خيبر ملجأ لليهود بعد أن أجلاهم محمد عن المدينة ، وأستقروا هناك يتطلعون إلى الانتقام ، وأدرك الرسول أهدافهم . وكان الرسول قد بدأ يقاتل جميع أعداء الاسلام ، فرأى أن يهاجم مدينة خيبر .

في مطلع السنة السابعة من الهجرة ، خرج الرسول من المدينة على رأس جيش من المسلمين بلغ ألفا ومائتين من الرّجالة ومائتين من الفرسان ، وصحبه أبو بكر وعلى ابن أبي طالب وعمر بن الخطاب ، وغيرهم من كبار الصحابة[1].

كان يهود خيبر إذ ذاك يقيمون بحصون على نحو ما كان يفعل بنو جلدتهم بيثرب ولم يدر بخاطرهم أن الرسول سيغزوهم لمنعتهم ووفرة سلاحهم وكثرة عددهم . لكن الرسول ما لبث أن نزل بساحتهم ليلا على حين غفلة منهم ،

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ١٠٢

بحيث لم يستطيعوا أن يضمّوا إليهم حلفاءهم .فلما أصبح الصباح وشرعوا يتأهبون لأداء أعمالهم فوجئوا بمشاهدة المسلمين أمامهم ، فذعروا وولوا هاربين إلى حصونهم . ثم دار القتال بين الفريقين وهاجم المسلمون حصون اليهود حصنا بعد حصن وتمكنوا من فتح بعضها عنوة ، كما أخذوا البعض الآخر صلحا .

أصبحت الحصون التي فتحت عنوة ملكاً للمسلمين ، أمّا ما أخذ صلحا فقد اتفق الرسول مع أصحابها على أن يبقوا بالأرض يزرعونها مناصفة، النصف للمسلمين والنصف الآخر لليهود(١).

لما سمع أهل فدك وهي مدينة قرب المدينة ، بتلك المعاملة الحسنة التي عامل بها الرسول أهالي حصون خيبر ، أرسلوا إليه يطلبون الصلح ، فصالحهم وصاروا يعطونه نصف غلة أرضهم (٢) . وأصبحت فدك خالصة له لأن المسلمين لم يلقوا عليها بخيل ولا ركاب ، أما مغانم خيبر فقسمت على أهل الحديبية . قال الله تعالى (٣) (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه) (٤) .

كان الاستيلاء على مدينة خيبر من أعظم انتصارات المسلمين . وحينما تقدم محمد إلى خيبر وشاهد أسوارها العالية الحصينة، والتلال الصخرية التي تحميها ، توجّه بصلاته إلى ربه طالبا منه العون والقوة (٥).

وكان لانتصار المسلمين في خيبر أهمية خاصة ، فقد ترتب عليه أن

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج ٣ ص ١٥٢
(٢) المقريزي : إمتاع الأسماع ج ١ ص٣١٢ — ٣٢٨
(٣) سورة الفتح آية ٢٠ (٤) يقصد عز وجل بهذه (خيبر)
(٥) أرفنج : حياة محمد (ترجمة المؤلف) ص ١٩٩

أصبح لدولتهم الناشئة أراضى مملوكة خارج المدينة يجبون منها الخراج ، كما أدى إلى وجود جماعة من اليهود يضمها السلطان السياسي للدولة الإسلامية وهكذا وُجد فى الدولة لأول مرة أهل ذمة ، وقد سمح لهؤلاء الذمّيين بأن يظلوا على دينهم ويستغلون أراضيهم وفق الشروط التى تؤخذ عليهم (١).

وفوق ذلك، فقد استطاع الرسول أن يقضى على « فردية » اليهود وأن يجعلهم رعايا فى الدولة العربية الإسلامية الناهضة ، يدينون بالطاعة لها ولرئيسها العربى وترفرف عليهم جميعا راية القومية العربية (٢).



(١) جمال سرور : قيـام الدولة العربية ص ١٢٠
(٢) محمد والقومية العربية للمؤلف ص١١٠

٥ — اليهود فى الدول الإسلامية

التسامح والحرية الدينية فى الدولة الإسلامية :

نعنى بالتسامح الدينى ان يكون لكل فرد فى الأمة حق فى ان يعتقد مايراه حقا، وان تكون له الحرية فى تأدية شعائر دينه كما يشاء، وان يكون اهل الأديان المختلفة امام قوانين الدولة سواء .

وينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى نظرة تسامح ، فقد سمّى اليهود والنصارى اهل كتاب، وسماهم اهل ذمة، وهما تسميتان رقيقتان. والإسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين، ونصح الإسلام المسلمين إذا دخلوا فى جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين ان يجادلوهم بالحسنى فقال سبحانه وتعالى : (ولا تجادلوا اهل الكتاب إلا بالتى هى احسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى انزل إلينا وانزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون). كما قال عز وجل ايضاً : (قل يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والإسلام يبنى العلاقات الإنسانية ،سواء اكانت بين الأفراد ام كانت بين الجماعات ، على التسامح . واعترف كثير من المستشرقين بأن المسلمين والذميين عاشوا جنبا إلى جنبا فى مجتمع واحد تربطه صلات المودة والمحبة والتعاون . ومن هؤلاء المستشرقين (جولدتسيهر) الذى قال : « إن ما يشاهد اليوم من تسامح الحكومات الإسلامية يرجع إلى ما كان فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى من مبادى الحرية الدينية ، التى منحت

لأهل الكتاب حق مباشرة أعمالهم الدينية ، وروح التسامح في الإسلام قديمة ، وهي الروح التي اعترف بها المعاصرون من غير المسلمين ، وأصلها في القرآن (لا إكراه في الدين) .

واعترف المستشرق (أرنولد)[1] بتسامح العرب المسلمين مع أهل الذمة ، مسيحيين أو يهود ، وقارن بين هذا التسامح الإسلامي ، وما أقدم عليه الأوروبيون من اضطهاد ، فقال : « لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الأديان الأخرى . ولو أختار الخلفاء إحدى الخطتين لاكتسحوا هذه الأديان بتلك السهولة التي أقصى بها فردنياند وإيزابلا الدين الإسلامي من أسبانيا ، أو التي جعلت لويس الرابع عشر يعد المذهب البروتستنتي مذهباً يعاقب عليه متبعوه في فرنسا ، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا ثلثمائة وخمسين سنة . وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت تماماً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين . ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم » .

أنصف الإسلام البشر كافة ، وقد قدّر كثير من علماء اليهود الإسلام وروحه الصادقة ، ومن هؤلاء (عمانوئيل دوبسن) أحد علماء اليهود ، فقد قال عن المسلمين : « حملوا بفضل القرآن قبس العرفان إلى أوروبا ، وبالحق أن المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة والطب والفلك والشعر ، وأحيوا

(١) أنظر كتاب الدعوة في الإسلام لأرنولد نجد كثيراً من الآراء حول تسامح المسلمين مع الذميين .

تراث اليونان وعلومهم الميتة . لقد كانت الدنيا محاطة ببحر من ظلمات الجهل فأغرق المسلمون كل أرجائها فى النور ، فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلم الحديث » .

وينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى فى حدود التعايش الآمن السليم . وقد جاء فى القرآن الكريم : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

دعا الإسلام الناس ، مع دعوته إلى تكوين الأخوة الإسلامية إلى أخوة إنسانية عامة شاملة لا فرق معها بين الأمم والعناصر والعقائد والمذاهب .

بين الاسلام واليهودية .

أين هذه التعاليم الإسلامية النقية الصافية من التقاليد اليهودية التى تدعو إلى الغرور العنصرى والاستعلاء الجنسى ، وماكان يدعو إليه اليهود من أنهم (شعب الله المختار) وأن الله اصطفاهم من بين الشعوب ليكونوا حملة الدين الحقيقى وأن الله (شعب الله اصطفى الشعب العبرى ليكون (شعبه) وأنه يقوم برعايته وإرشاده والسهر على مصالحه بينما لم تحظ الشعوب الأخرى بشىء من هذا قط .

فيدعى اليهود أن الله قد اختصهم وفضلهم بأن جعلهم شعب الله المختار من دون البشر أجمعين ، وتطرفوا فى قولهم هذا أشد تطرف حتى أنهم حسبوا أن ماعداهم من الشعوب قد سخرهم الله لخدمتهم ، وأنهم كالسائمة يحق لهم إذلالهم واستغلالهم ، وسموهم (جوييم) استهزاء واحتقار واستصغارا لشأنهم .

وهذا الإدعاء يأباه العقل والمنطق ، فالله خالق البشر أجمعين ليعبدوه ، لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى والمواطنة الصالحة ، فكيف يختار

الله عز وجل طائفة من الناس ويصطفيهم لمجرد انتسابهم لجنس أودين سواء عمل أفرادها شراً أو خيراً ، والله تعالى يقول فى سوره البقرة : (وإذ ابتلى[1] إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) .

وإذا كانت كل ديانة ينطبع فيها ماكان يسود العصر الذى وجدت فيه من طبائع وأشياء، فإن هذه الظاهرة واضحة فى الديانة اليهودية وضوحا بينا، فهى تدعو إلى الأثرة والتعصب وتشيد بمبدأ القوة والغلبة والتعطش إلى سفك الدماء وحب الانتقام، حتى أنهم كانوا ينتظرون خلاصهم من الأسر على يد طاغية غاز جبار، إلى أن تنبأ لهم نبيهم زكريا فى رؤياه بأن خلاصهم سيكون على يد ملك عادل وديع مسالم .

حقا أن الديانة اليهودية كانت بمثابة نقطة تحول فى العقيدة من فكرة التعدد فى الآلهة إلى وحدانية الله ، إلا أن تصوُّر اليهود لم يخل من التفكير الساذج فى صفات الله وفى علاقة الخالق بالخلق، فلقد نسبوا إلى (الإله) أعمال الإنسان وحركاته، فذكروا أنه كان يتمشى فى الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب ، وانه دفن موسى حينما مات . ولم تذكر كتب العهد القديم اى شىء عن خلود النفس ولا عن الجزاء والعقاب ويوم البعث ، وإنما جميع الأيام تأوى بعد الموت إلى مكان سفلى سحيق يسمونه (الجب) أو (شئول) وهى الهاوية التى تأوى إليها الأيام بعد الموت ولا نجاة منها لميت والذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد[2] .

كانت الديانة اليهودية تحولا بالعقيدة الدينية من فكرة العديد إلى

---

(١) ابتلى : اختبر

(٢) العلماوى : مستقبل الإسلام ص ٤

إلى فكره التوحيد ، وانها كانت بمثابة إرهاص لما يأتى بعدها من ديانات ، وحولت العقيدة المسيحية العالم من طريق الأنانية وحب الذات والتعصب الأعمى إلى طريق الإيثار والمحبة والرحمة ، فكانت بمثابة علاج لما انتاب العالم من مرض مزمن متأصل فيه.

اما العقيدة فى الإسلام ، فجاءت تقريراً للحق المطلق فى أية صورة من الصور الكونية واعية تماما لحقيقة الإنسان وطبيعته ، مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الإنسان وإيمانه الصحيح برباط قوى متين، حتى اننا لا نبعد عن الحقيقة لو قلنا انها استوعبت الكمال المطلق بكل معنى من معانيه[1].

يؤمن اليهود بتعاليم التلمود وهى التوراة الشفاهية التى تتضمن مجموعة القواعد والوصايا العشر والشرائع الدينية والمدنية ، وكذلك الشروح او التفاصيل والتعاليم والروايات التى كانت تتناقل وتدرس شفاها من حين إلى آخر ، وقد اتسع نطاق الدرس والتعليم فى التلمود حتى صار من الصعب حفظه فى الذاكرة ، ولأجل دوام المطالعة والمداولة ، وحفظا للأقوال والنصوص والآراء المتعددة والترتيبات والعادات الحديثة وخوفا من نسيانها وفقدانها بمرور الزمن ، فقد دونها حاخامات اليهود وقبلت كشريعة عن موسى عليه السلام.

ويعتقد التلموديون انهم من طينة غير طينة البشر إذ زعموا ان الذين لا يعتنقون الديانة اليهودية حيوانات لا تعقل ، او انهم خدم واتباع لليهود ، بل قالوا ان السماء والأرض لم تخلقا لأحد سواهم، وأنهم آلهة فى الأرض[2].

---

(١) العقاد : الله ص ١١٠ .

(٢) عبد المنصف محمود : اليهود والجريمة ص ١٢٣ .

أحوال اليهود فى الدولتين الفارسية والرومانية .

مر بنا ماكانت عليه العلاقات بين اليهود والدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) ، وكيف قضى الرومان على اليهود فى الشام ، ودمروا معبدهم فى أورشليم سنة ٧٠ م، وكيف خرجوا مشردين إلى جهات متفرقة، وأنهم حين جلوا عن موطنهم فى فلسطين لم يهاجروا إلى مكان واحد ، ولم يؤلفوا مجتمعاً واحداً ، بل تفرقوا فى جميع أرجاء العالم المتحضر فى أوروبا وآسيا وإفريقية ولكن اليهود فى تفرقهم فى هذه الأرجاء لم ينسوا أبداً أنهم يهود، فلم يندمجوا فى الأقوام الذين عاشوا بينهم ، إنما احتفظوا بعزلتهم وانفصال جماعتهم عن الأوطان التى استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الطباع التى تتنافى مع المواطنة الحقة ، ومن ثم كانوا دائما موضع شك واضطهاد أينما ذهبوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة من الأمم وأحسنت إليهم حقبة من الزمن إلا وعادت تنوء من إساءتهم إليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ، ولا تهتم بالمشاعر العامة لسائر المواطنين .

كانت أحوال اليهود فى عهد البابليين والآشوريين والفرس حسنة نسبيا بالمقارنة بحالتهم فى الدولة الرومانية البيزنطية ، فكانوا يشتغلون بالتجارة ويتولون المناصب ، إلى أن أستولى الاسكندر الأكبر على بابل سنة ٣٣١م. فعامل اليهود بشدة لمقاومتهم له ، ولكنه سرعان ما تقرب إليهم فانضموا إلى جيشه . وكان اليهود أسرع الناس إلى اعتناق المسيحية عند أول ظهورها. وقد اضطهدهم أردشير مؤسسة الدولة الساسانية وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم ، ولكن سرعان مااستطاع اليهود إرضاء الأكاسرة فتحسنت أحوالهم نوعا ما، ثم عاد الاضطهاد مرة أخرى فى عهد يزدجرد الثانى وقباذ

الأول ، إلا أن إنشغال الأكاسرة فى أواخر الدولة الساسانية فى لم شملهم شغلهم عن اضطهاد اليهود[1].

هذه هى أحوال اليهود فى الدولتين الفارسية والرومانية ، يعانون الظلم والاضطهاد، وأصبحوا يتطلعون إلى من ينقذهم. وكانت الفتوحات الإسلامية لأراضى الفرس والرومان، هى المنقذ المنشود . واليهود قبل كل شيء يؤثرون مصالحهم المادية الخاصة ، ولذا رأوا أن يقفوا موقف الحياد التام من قتال الجيوش العربية الإسلامية للجيوش الفارسية ، والجيوش الرومانية فى الشام ومصر . وقد قدر العرب الفاتحون لليهود موقفهم الحيادى . فسمحوا لهم باستمرار إقامتهم فى المدن التى كانوا يقيمون فيها . وأطلقوا لهم الحرية الدينية ، وحرية ممارسة نشاطهم الاقتصادى وقد نصت شروط الصلح الذى عقده عمرو بن العاص عند فتحه مصر ، على السماح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية مع الاحتفاظ بأموالهم وممتلكاتهم .

اليهود كرعايا فى الدولة الاسلامية

كان اليهود إلى جانب الطوائف غير الاسلامية يطلق عليهم اسم (أهل الذمة) ، والذمة فى اللغة العهد والأمان والضمان . وأهل الذمة هم المستوطنون فى بلاد الإسلام من غير المسلمين وسموا بهذا الاسم لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . فإن تقاليد الإسلام كانت تقضى بأنه إذا أراد المسلمون غزو اقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الاسلام ، فمن استجاب منهم طُبِّقَتْ عليه أحكام المسلمين، ومن امتنع فرضت عليه الجزية كقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرموا ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق

---

(١) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ٦٦ .

من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .
ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها وهى ـ المسيحية والبهودية والمجوسية والصابئة والسامرية والفرقة الأخيرة اى السامرية ، من فرق اليهود وينقسمون إلى عدة طوائف كالربانيين والقرائين ممن ينكرون على السامريين ان يكونوا يهودا لاختلاف التوراة التى بيدهم عما فى يد الطوائف الأخرى(١).

تحدث المؤرخ (ترتون)(٢) عن اليهود فى الدولة العربية الإسلامية فقال : اما اليهود فمن العجيب ان المؤلفين المسلمين قلما يشيرون إليهم وقلما يرد ذكرهم فى كتب الفقه التى تقصر كلامها فى الغالب على الذميين او النصارى فلا جرم إذا تبادر إلى الذهن انهم فئة ضئيلة مستضعفة ليست بذات خطر بيد ان واقع الحال لا يؤيد هذا الفهم وليس له من سند يزكيه والدليل على ذلك ما اورده (بنيامين التطيلى) وإشارته إلى ان لهم فى بعض الأحايين جاليات كبيرة العدد ، فكان لهم فى الاسكندرية إبان الفتح الإسلامى جالية يتراوح عددها بين أربعين الفا وسبعين الفاً ، بل الثابت انه ورد فى نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالاقامة فى الاسكندرية . اما فى فارس فكان اليهود اقل بكثير من النصارى .

يمضى (ترتون)(٣) فى مزاعمه حول مركز اليهود فى الدولة العربية الإسلامية فيقول : كان المسلمون ينظرون إلى اليهود نظرتهم إلى فئة دونهم مكانة لا يحق لهم أن يتطاولوا لأكثر من تناول الفتات المتساقط من موائد سادتهم : ولا تزال هذه النظرة سائدة إلى اليوم فى اليمن حيث لا يحمل اليهود

(١) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (للمؤلف) ص ٢٦٣ .
(٢) أهل الذمة فى الإسلام ص ٩٧ (٣) ص ١٠١

السلاح كما أن أهل البلاد يزدرون العربى إذا عرف عنه قتل يهوديا على أن هذه النظرة لاترجع إلى روح رياضية ! !

ولكننا نلتمس العذر للمسلمين فى معاملتهم لليهود ونرد على مزاعم (ترتون) بماكتبه أحد الكتّاب العرب(١) اليس من العسير علينا فى مصر أن نلاحظ العزلة اليهودية رغم أن البلاد الإسلامية كانت من التسامح نحو اليهود حتى أنهم لم يضطروا اكما فعلوا بين غير المسلمين فى أغلب مدن أوربا من أن يعيشوا فى حى خاص مظلم قذر غير صحى عرف باسم (الجيتو) نسبة إلى حى اليهود فى روما ففى القاهرة لهم حارة وفى الإسكندرية لهم حارة تحمل اسمهم .

حقوق اليهود وواجباتهم :

فتح العرب المسلمون كثيرا من الأمصار أبرزها بلاد العراق والشام ومصر ، وقد رحّب معظم أهل الذمة (نصارى ويهود) بالفتح العربى تخلّصا من الاضطهاد الرومانى أو الصراع الطائفى ، كما فرح أهل الذمة فى الدولة الفارسية لخلاصهم من ظلم حكامهم الفرس والاعفاء من الخدمة العسكرية والتمتع بالحرية الدينية التى يسمح بها الإسلام مقابل دفع الجزية وكان ترحيب اهل الذمة عاملا على نشر الإسلام فإن هذا الدين لم يقابل عدوا قويا(٢) فقد دعا العرب المسلمون اهل الذمة إلى الإسلام ، واعلنوا ان المحارب إذا اسلم يصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ولذا دخل فى الإسلام جموعُ هائلة من اهل الذمة واعتقد بعضهم ان توفيق العرب فى الفتوح هو مظهر من مظاهر رضاء الله عليهم ودليل على صدق دينهم ، واماّ

---

(١) الدكتور محمد عبد المعز نصر : الصهيونية ص ٩

(٢) S· L. Poole Studies in a Musque P 87

من بقى من اهل الذمة على دينه فقد عاملهم العرب بتسامح عظيم باعتبارهم اهل كتاب (١).

كان على اهل الذمة طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين واجبات ولهم فى مقابلها حقوق اما الواجبات فكان على اهل الذمة ان يدفعوا الجزية، على الموسر ٤٨ درهما وعلى متوسط الحال ٢٤ درهما وعلى الفقير ١٢ درهما مع تقديم الزيت والخل والطعام اللازم للمسلمين(٢) وكان يشترط على اهل الذمة فى عقد الجزية شرطا احدهما مستحق والآخر مستحب ويشمل الشرط المستحق ستة امور يجب على اهل الذمة تحقيقها ، فيجب عليهم احترام القرآن والرسول وعدم القدح فى الإسلام والا يصيبوا مسلمة بزنا ولا بنكاح والا يحولوا مسلماً عن دينه والا يعينوا اهل الحرب. اما الشرط المستحب فيشمل ايضاً امور ستة فعليهم لبس الغيار وشد الزنار وان تكون مبانيهم اقل ارتفاعا من مبانى المسلمين والا يسمعوا المسلمين اصوات نواقيسهم وتلاوة كتبهم وعدم المجاهرة بشرب الخمر او إظهار الصلبان والخنازير وإخفاء دفن الموتى وعدم النواح عليهم وعدم ركوب الخيل مع السماح بركوب البغال والحمير .(٣)وعلى فلاحى اهل الذمة العناية بالطرق والجسور والأسواق والإرشاد وضيافة ابناء السبيل (٤).

اما حقوق اهل الذمة (النصارى واليهود) على السواء ، فهى الكف عنهم والحماية لهم ،ولأهل العهد الأمان على نفوسهم وأموالهم(٥) وفى الحقيقة

---

(١) Shedd Isalm and the Oriental churches P. 97

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ١٨٥ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٩ .

(٤) الطبرى ج ٤ ص ١٨٤

(٥) الماوردى الأحكام السلطانية ١٣٩

كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم فقد كان أهل الذمة لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية بينما هم معفون من الصدقات (١) وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم من صدقة (زكاة) كما كانت مقابل عدم إسلامهم والسماح لهم بالبقاء على دينهم، وأعفى الصبيان والنساء والمساكين وذوو العاهات والرهبان(٢) وكثيرا ما نقض بعض أهل الذمة ما شرطه المسلمون عليهم فكان المسلمون لا يؤذونهم أو يتعرضوا لأموالهم أو يسبوا زراريهم بل كانوا يكتفون بطردهم من بلاد المسلمين. وعاش المسلمون مع أهل الذمة جنبا إلى جنب ، فقد كان فى كثير من المدن الإسلامية أحياء لليهود فكان المسلمون يتركون لهم دورهم ومعابدهم ومنازلهم وعاشوا جميعا فى سلام(٣) .

اليهود كطائفة فى الدولة العربية الإسلامية :

تمتع اليهود فى الدولة العربية الإسلامية بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج وارتبطت بالفعل قضاياهم فى الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم وكان رأس الجالوت يدير شئون اليهود وكان يحكم هذه الطائفة وفقا للعادات الخاصة القديمة(٤) . وكان البستانى هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود فى العهد الإسلامى ، وهو الذى أعاد مجد رئاسة الجالوت بعد زواله وقد بقى هذا المنصب فى أعقابه يتوارثه الخلف عن السلف عهدا طويلا وقام البستانى هذا بخدمات جليلة للمسلمين مما كان موضع تقدير عمر بن الخطاب ورضائه فأوصى بحسن معاملة اليهود(٥) .

---

(١) ابن آدم الخراج جـ ١ ص ١٠
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٦٩
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٠
(٤) دعومبين : النظم الإسلامية ص ١٦٦
(٥) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠١

اعترف المستشرقون بحسن معاملة اليهود فى العهد الإسلامى فيقول أرنولد(١) : إن المسلمين لم يألوا جهداً فى معاملة رعاياهم من المسيحيين . كما أكد بارتولد(٢) أن النصارى كانوا أحسن حالا تحت حكم المسلمين إذ أن المسلمين كما يذكر جولد تسيهر(٣) اتبعوا فى معاملتهم المدنية والاقتصادية مع أهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل ويذكر (شد)(٤) ان العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح .

بل إن (ترتون) يعود فيذكر تسامح المسلمين فيقول وتدلنا القصة التالية على عدم إزدراء المسلمين للذميين وذلك ان يعقوب بن اسحق الكندى لم تمنعه يهوديته من أن يكون أبرز فلاسفة عصره وطبيب دهره وأدنى الناس منزلة إلى المأمون وحدث أن جاء ذات يوم إلى حضرته وجلس مجلساً فوق مجلس أحد كبار المسلمين الذى قال له : لم تجلس وأنت اليهودى فوق ما يجلس علماء الملة ؟ فأجابه يعقوب : لأنى أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف .

والحقيقة أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينية تماماً فضلا عن حسن المعاملة ، فقد كان التسامح شعار الإسلام ولم يكن الفتح العربى حرباً دينية أو صليبية ويدلل أرنولد(٥) على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة ، وهو البطريق النسطورى يسوع ياف الثالث كان قد بعث بها إلى رئيس أساقفة الفرس وقدم تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التى اتبعها العرب فى نشر الإسلام فقد احترم

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٦٥

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٩

(٣) العقيدة والشريعة ص ٣٨

(٤) Islam and Oriental churches P 110

(٥) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥

المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كان يدفعونه إلى حكامهم السابقين من الضرائب[1] ولم يطبق الولاة العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشربهم الخمر[2] بل إن الخوارج الذين عرفوا بالتشدد فى الدين كانوا يعاملون أهل الذمة معاملة حسنة[3].

لم يكن النظام المالى الذى عومل به أهل الذمة فى الدولة العربية الإسلامية قاسيا أو ظالما فذكر فون كريمر[4] أنه لم يلاحظ فى نظام الضرائب شيئاً مجحفا ، ويرى فان فلوتن[5] أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة من بناء الطرق وحفر الترع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الاصلاح . والحقيقة أن الجزية لم تكن عقابا لأهل الذمة فهى نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم،وقد فرض الإسلام على المسلم الزكاة (الصدقة) حتى يتكافأ الذمى والمسلم فى الواجبات وكانت الجزية مقابل زكاة المسلم فى حين يقوم المسلم بأعباء الجندية .

وكان نظام الجزية الإسلامى عاملاً فقد كان حسب مقدرة الفرد المالية ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال كما أعفى النساء الصبيان وذوى العاهات والرهبان وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء[6].

بل إن الخليفتين الذين وجه المستشرقون معظم إهتماماتهم إليهما وهما عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز قد أحسنا معاملة أهل الذمة واعترف

---

(١) لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩
(٢) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ٦٦
(٣) Lamméns : Les Sectes d'Islam, p. 150
(٤) الحضارة الإسلامية ص ٣٣
(٥) السيادة العربية ص ٢٠
(٦) تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (للمؤلف) ص ٢٧٧

أهل الذمة لعمر بن الخطاب بتسامح ولاته معهم حين سألهم عن ذلك فقالوا: مانعلم إلا وفاء وحسن ملكة(١) وكان في وصيّة عمر عند وفاته نصيب لأهل الذمة فقد أوصى بأن يوفى لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يُقاتل من ورائهم(٢) أما عمر بن عبد العزيز فقد أمر ولاته بألا يهدموا كنيسة لنصارى أو بيعة ليهود مما صولح أهل الذمة عليه(٣) كما نهى عمر عامله على الكوفة من اتباع سياسة الحجاج الثقفي التي تقضي بإرجاع أهل الذمة إلى قراهم(٤) وكتب عمر إلى عامله بالكوفة أيضاً يأمره بأن يعطى أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة فيسدّد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ثم ختم رسالة بقوله ("قو أهل الذمة فإنّا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين)(٥) .

اليهود في المجتمع العربي الاسلامي :

تفاوتت درجات المعاملة الحسنة التي لقيها اليهود (وأهل الذمة بصفة عامة) باختلاف الخلفاء والولاة وعاش اليهود بين أفراد المجتمع العربي الإسلامي في أمان وأطمئنان واحترفوا عدداً كبيراً من الحرف وتولوا كثيرا من الوظائف الهامة .

اشتغل كثير من اليهود بفلاحة الأرض فقد ترك عمر بن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية، هاجر اليهود من جنوب الجزيرة العربية فنزلوا في الكوفة واشتغل بعضهم بالزراعة واشتغل البعض الآخر في سائر الحرف وقد امتنع يهود الحيرة ، وهي على أطراف العراق

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٢١٨
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٢١
(٣) الطبري ج ٨ ص ١٤١
(٤) الطبري ج ٨ ص ١٣٩
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٧

من أن ينتقلوا إلى الكوفة عند انشائها حتى إذا وجدوا من سبقهم فى الهجرة قد حازوا الثراء أسرعوا يهاجرون إليها سنة ٢٠ هـ(١).

احترف عدد كبير من اليهود الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن(٢) وكان الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة من اليهود أسرع الناس إلى الإسلام فقد اعتنقه عدد عظيم فى حماسة كبيرة(٣).

احترف اليهود التجارة واشتغلوا بالصناعة كما احترفوا الطب ، فقد كان للحجاج بن يوسف الثقفى مثلا طبيبان يهوديان(٤) واشتغل اليهود بشتى أنواع التجارة ، كما اتصلوا بالملوك لاشتغالهم بالجوهرات وحدث أن تقدمت أسرة كافور الأخشيدى إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وذكرت أنها أودعت عند صائغ يهودى قباءمن لؤلؤ منسوج بالذهب وأنه أنكره فاستقدمه الخليفة وألح عليه فى إرجاع الثوب إلى صاحبه ولكنه بقى على إنكاره فأمر المعز بتفتيش بيته فعثروا فيه على القباء مدفوناً فى حجرة(٥).

كان يهود بيت المقدس يحتكرون تجارة الأصباغ فى المدينة فقد استأجروامعملا من الملك عمورى الأول وانحصرت هذه المهنة فيهم دون غيرهم رغم أن عددهم فى بيت المقدس لم يكن يتجاوز المائتين وأقاموا فى حى مجاور لبرج داوود كما احتكروا فى الأندلس صناعة خصى الرقيق الصقالبة(٦).

---

(١) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣
(٢) ترتون أهل الذمة فى الإسلام ص ٢٠٥
(٣) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢
(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدولة ص٩١٤
(٥) السيوطى : حسن المحاضرة حـ ، ص ١٣
(٦) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٥

أما التجار اليهود الأوربيون فكانوا معروفين تماماً فى البلاد الاسلامية وكانوا يتحدثون باللغات العربية والفارسية واليونانية والفرنسية والأسبانية والروسية ويتنقلون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً فتراهم يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويبدءون سفرهم عادة من بلاد الفرنجة من الفرما ثم يسافرون براً حاملين تجارتهم على ظهور القلزم ومنه إلى جده فالهند فالصين ومن هناك يحملون المسك والعود والدراصينى والكافور وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى ثم يؤوبون من نفس الطريق إلا أنهم كانوا يذهبون فى بعض الأحيان من فرنسا إلى أنطاكية ثم يسافرون برا إلى الفرات وبغداد ثم يرحلون فى نهر دجلة إلى الأبلة وعمان والهند والصين(١).

كان يتولى شئون اليهود رئيس دينى يسمى (رأس الجالوت) ونستطيع بدارسة تاريخ أحد هؤلاء الرؤساء معرفة نفوذ صاحب هذه الوظيفة.

فى العصر العباسى الثانى تولى هذه الوظيفة شخص إسمه (دانيال بن حسداى) وكان يشغل أيضاً وظيفة قاضى اليهود عامة ويستعين بمعاونين عشرة ويسميه المسلمون (سيدنا ابن داود) ويسميه اليهود (سيدنا رأس الجالوت) وهو يسيطر على جميع اليهود فى البلاد الخاضعة للخليفة وكان الجميع يحترمونه . فكان المسلمون واليهود على السواء يقفون إجلالا له إذا كانوا بحضرته ومن لم يقف له ضرب مائة سوط وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس فى موكب يتقدمه الفرسان من اليهود والمسلمين ليفسحوا الطريق له وكان دانيال يتعمم ويمتطى حصانه فإذا جاء إلى الخليفة

(١) ابن خرداذ به : المسالك والممالك ص ١٥٣

قبل يده واقتعد مكانه وأمراء المسلمين وكبارهم وقوف بين يديه وكان دخله من الضرائب المفروضة على اليهود مائتي ألف دينار(١).

جرت عادة رأس الجالوت عند تعينه أن يجزل العطاء للخليفة وللأمراء وكبار رجال الدولة . على أن يهود مصر قد صار لهم فيما بعد رئيس طائفة مستقل عن غيره فتولاها سنة ٦٨٤ هـ الشيخ المهذب أبو الحسن بن الموفق بن شمويل الطبيب كما كتب له التوقيع برئاسة سائر الفرق اليهودية، والقرائين والسامرين في جميع ديار مصر وكان اليهود إذا أرادوا تكفير أحد منافخوا في الشهبور وهي آلة موسيقية تشبه البوق برغم أن هذا لم يكن مما تقضى به شريعتهم لأنه لم يكن في قدرة رئيس جالوتهم أن يصدر حكمة بجلد أحدهما أو قتله في دار الإسلام ، وقد حاول أحد اليهود في ذات مرة القيام بالثورة فنهض رئيس جالوتهم ونادى أن هذا لم يكن المسيح المنتظر ثم أعطى ملك فارس مائة ألف دينار من الذهب وبذلك حمله على عدم معاقبة اليهود لجريمة إقترفها أحدهم(٢) .

كانت الصلات ودية على الدوام بين المسلمين وكان المسلمون يتسامحون في صدر أيام الفتوحات الإسلامية مع اليهود . ولم يكد معاوية يستولى على طرابلس حتى جاب إليها اليهود وأسكنهم فيها(٣). وفعل المسلمون مثل هذا في الأندلس إذ أنزلوا اليهود في قرطبة وغرناطة وطليطلة وأشبيلية بعد أن تم لهم فتحها(٤).

---

(١) سعوى : التنبيه والإشراف ص ١١٣
(٢) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ١٠٢
(١) ترتون . أهل الذمة في الإسلام ص ٩٧

اليهود فى مصر الاسلامية :

فى عصر الولاه الأمويين والعباسيين :

كان اليهود أقلية بالنسبة للمسلمين والمسيحين ويذكر بنيامين التطيلى فى رحلته أنه كان لليهود زمن الفتح الإسلامى جاليات كبيرة العدد فكان لهم فى الاسكندرية جالية يتراوح عددها بين أربعين ألف وسبعين ألفاً ، بل الثابت أنه ورد فى نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالإقامة فى الاسكندرية .

والمعروف أن العرب بعد فتوحاتهم العظيمة وتفوقهم على شعوب لها حضارات عريقة وبعد استقرار أقدامهم فى البلاد المفتوحة بدأوا يشعرون بتفوق شعبهم على سائر الشعوب وبتفوق لغتهم ودينهم على سائر اللغات والأديان ولم تكن هذه النزعة قوية فى السنوات الأولى للفتوحات العربية حينما كانت تغلب عليهم روح البساطة والتواضع ولكنها سرعان ما ازدادت وضوحاً وكان مثلهم فى ذلك مثل اليونان والرومان من قبل .

وقع أهل الذمة (يهود ونصارى) تحت طائل بعض المضايقات ولكن هذه المضايقات لم تكن دائمة وإنما حدثت فى فترات متقطعة كما أنها لم تكن ذات بال إذا قورنت باضطهاد المسيحين فى مصر أيام الإمبراطور هرقل المسيحى . كذلك لم تكن المضايقات أيام العرب لتقارن مثلا باضطهاد كاثوليك أسبانيا للبروتستنت والمسلمين واليهود ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش فى أسبانيا باقية مابقى التاريخ .

ومن المضايقات التى تعرض لها أهل الذمة فى مصر أنه كانت أمور يجب عليهم اتباعها من حيث بناء الكنائس ومن حيث لباسهم وزيهم والدواب

التى يركبونها وغير ذلك مما يميز بينهم وبين المسلمين من الناحية الاجتماعية والأدبية .

والواقع أن العصبية الدينية لم تغلب على العرب بعد الفتح وإنما تغلب عليهم الشعور بعزتهم وتفوقهم على غيرهم بعد إنشاء إمبراطوريتهم الإسلامية فرأوا أن يتميزوا عن غيرهم فى اللباس والزى والركوب وغير ذلك مما يشعر فى الوسط الاجتماعى بأنهم هم الحاكمون مما حمل الكثير على الدخول فى الدين الإسلامى كما أن العرب وقد أصبحت البلاد التى فتحوها ملكا لهم أن يبقوا على الكنائس والمعابد ولم يتدخلوا فى شئون أهـــل الذمة الدينية .

ونلاحظ على وجه الإجمال أن أوامر الخلفاء بخصوص التمييز بين المسلمين وأهل الذمة كانت تنفذ فى حين صدورها بدقة ولكن التمسك بها كان يقل تدريجياً وكثيراً ما كان يتسامحون مع أهل الذمة، فى بناء الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية وفى الاحتفال بأعيادهم الدينية وفى مظهرهم العـام .

أدى تعريب الدواوين إلى إقبال كثير من المسيحين واليهود فى عصر الولاه على اعتناق الدين الإسلامى وعلى تعلم اللغة العربية ـ ونشأت ذريتهم فى الوسط الإسلامى فاعتزوا بدينهم الإسلامى واندمجوا فى الجماعة الإسلامية تماماً .

فى العصر الطولونى .

انتشر الإسلام فى ذلك العصربين أهل الذمة (يهود أو نصارى) على نطاق واسع وكان هذا من أهم العوامل التى أثرت فى الحياة الاجتماعية فى مصر فقد ترك أثراً واضحاً فى نظام الأسرة وفى العادات والتقاليد والمواسم والأعياد والأزياء وفى الأوضاع الاقتصادية للفرد .

والحقيقة البارزة أن النصف الأول من القرن الثالث الهجرى شهد انتشاراً للاسلام على أوسع مدى وشهد حركة إسلامية عميقة الأثر ظهرت آثارها فى أكثر من ناحية . فى ذلك الوقت انخفضت مقادير الجباية من الجزية المفروضة على غير المسلمين ومعنى هذا كله إزدياد عدد الداخلين فى الإسلام حتى أن الجزية بدأت تختفى كباب من أبواب الإيرادات ويمكننا أن نربط بين انتشار الإسلام وبين انتشار الثقافة العربية فى البلاد إذ مضت هذه الثقافة فى طريقها المرسوم وتغلغلت فى نفوس الناس مما أدى إلى كثرة الداخلين فى الإسلام . والمعروف أن الحركة العلمية فى مصر قطعت خطوات بعيدة فى النصف الأول من القرن الثالث وكان هذا إيذاناً بأن تحتل مصر مكاناً لائقاً فى ميدان الثقافة العربية .

لم نسمع عن ثورة قام بها اليهود أو المسيحيون ولم نجد فيما ذكره مؤرخو العصر الطولونى أية إشارة إلى الجزية كباب من أبواب الإيرادات وإنما كان الطولونيون منصرفون إلى الخراج ومضاعفته وإلى الأرض الزراعية وزيادة غلتها ، بل نكاد نحس بأن هذه الحركة الإسلامية فى العصر الطولونى لها طابع واضح فقد أصبح المسلمون غالبية مافى ذلك شك ولكن لم تكن غالبية عظمى وأصبح غير المسلمين أقلية ولكنها أقلية كبيرة العدد كبيرة الأثر(١).

لم تكن الهوة سحيقة بين الأغلبية من المسلمين والأقلية من غيرهم بل كان التعاون بينهم واضحاً ولكن رغم هذا فإن انتشار الاسلام المطرد وتفوق المسلمين فى العدد والنفوذ جعل أهل الذمة فى مصر يؤلفون طبقة إجتماعية مستقلة ولكن لم تبعد الشقة بينها وبين المسلمين ويبدو أن أهل

---

(١) دكتور حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين ص ١٠٢

الذمة لم يفقدوا امتيازاتهم القديمة إنما كانوا يحتفظون بقدر كبير منها وكانت لا تزال بيدهم الخبرات الفنية والصناعية وبقيت بيدهم فى العصر الطولونى الوظائف المالية الكبرى فى البلاد .

فى العصر الأخشيدى :

كان فى مصر على عهد الأخشيدين كثير من المسيحين كما كان بها بها بضعة ألوف من اليهود وليس فى الشريعة الاسلامية ما يغلق دون أهل الذمة أىّ باب من أبواب الأعمال العامة التى لا شأن للدين بها ولذا كان نشاطهم ملحوظاً فى الأعمال التى تدر الأرباح الوافرة فكان منهم أصحاب الصباغ والأطباء والصيارفة والتجار .

وكان لأهل الذمة محاكم الكنيسة الخاصة بهم ولكنهم كانوا يستطيعون أن يحتكموا إلى القضاة المسلمين وكانوا يدفعون الجزية كل بحسب ثروته .

ولا نسمع فى العصر الأخشيدى شيئاً عن التزام أهل الذمة بالقوانين الخاصة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين فى اللباس والركوب والراجح أن اليهود والنصارى احتفظوا بلغتهم الخاصة فلم يتركوها إلا حوالى أواخر القرن الرابع الهجرى وكانت العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر الأخشيدى طيبة فى معظم الأحيان وكانت المشاغبات بين الفريقين لا تنشأ لا حينما يثور الشعب على سيطرة أهـــل الذمة على الشئون المالية فى البلاد[1] .

---

(١) دكتورة سيدة كاشف . مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢١٣

فى العصر الفاطمى :

عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تنطوى على العطف والرعاية وأجمع المؤرخون على أن أبناء هاتين الطائفتين عوملوا فى عهد الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباه وتقلدوا أرقى المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز وشغلوا فى عهد المستنصر ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة بل تقلدوا الوزارة أيضاً وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الدينى ، وهو أمر نستطيع تحقيقه من بناء عدد من الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية أو إعادتها إلى ما كانت عليه[(١)].

وفى سنة ٤٠٢ هـ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين التى سبقتها فقد أمرهم الخليفة الحاكم بأمر الله بلبس الطيالس وبوضع الصلبان على أعناقهم وطول كل صليب منها ذراع ووزنته خمسة أرطال (أى ما يقرب من عشرة أرطال الآن) وأمر اليهود بحمل قرامى الخشب فى رقابهم وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج وأن تكون ركابهم من خشب وألا يستخدموا أحداً من المسلمين وألا يركبوا حماراً لمكار مسلم ولا سفينة ربانها مسلم وأن تكون الصلبان فى أعناق النصارى إذا دخلوا الحمامات العامة والجلاجل فى أعناق اليهود ليتميزوا بذلك عن المسلمين[(٢)] . ثم خصص فى سنة ٤٠٨ هـ حمامات خاصة باليهود وأخرى للنصارى وميز حمامات النصارى بوضع الصلبان فوقها وميز حمامات اليهود بالقرامى[(٣)] وهذه الاوامر كانت نتيجة ما اشتهر به الخليفة الحاكم من تطرف وشذوذ فى جميع تصرفاته ، وقد امتد شذوذه فشمل أيضاً أضطهاد المسلمين .

---

(١) دكتور حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٤

(٢) يحيى بن سعد التاريخ ٨٧

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٦

تولى اليهود كثيراً من المناصب الهامة وعلا شأنهم مما دفع بأحد الشعراء إلى أن عبرّ عن سخطه وعدم رضائه فى هذه الأبيات[١].

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمـــال عندهمو   ومنهموا المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم   تهوّدوا قد تهود الفلك

فى العصر الايوبى :

كان انتصار صلاح الأيوبى على الصليبين عام ١١٨٧ فاتحة خير واستقرار فقد كان فارساً مغواراً ذا قلب رحيم والمتوسط لديه طبيبه الخاص (الميمونى) سمح لليهود بالعودة إلى بلادهم فتدفق سيل المهاجرين اليهود من بلدان غرب أوربا إلى فلسطين وكونت طوائف عدة تختلف فيما بينها بجنسيتها التى انتمت إليها فى الأصل .

مقارنة بين يهود مصر ويهود اوربا :

عاش اليهود فى مصر فى تسامح وتساهل عظمين ولنذكر أحوال اليهود فى الدول الأوربية فى العصور الوسطى لنستطيع أن توازن بين معاملة الأوربين لليهود ومعاملة العرب لهم . وكان اليهود يعيشون فى أرجاء الدولة الرومانية بين قوم يخالفونهم فى الدين وكانوا يعيشون فى عزلة عنهم باختيارهم وأقاموا فى أنحاء الدولة فى مراكز متفرقة للمعاملات التجارية وشئون الصيرفة ومبادلة السلع والنقود ولكنها فيما بينها متفقة على قصد وعلى غير قصد لإنعزالها فى كل بقعة على حدة فإذا سافر اليهودى من الاسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته يذهب إليها ليستعين بها على عمله

(١) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٢٩

ويشترك معها وبارشادها فى استغلال من حوله وكان هذا الاستغلال بطبيعة الحال سبباً لنقمة الفقراء والأغنياء فى وقت واحد فكان اليهود عرضة لغضب المدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة وبخاصة فى أبان الأزمات والحروب الخارجية والأهلية وقد كانت تتعاقب بكثرة قبل انهيار الدولة الرومانية .

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هـذا الشعب المسمى (اليهود) متفق عليهم فيما بين أبنائه على ابتذاذهم واستباحة أموالهم وأرزاقهم ولأنه يعتزلهم بمجتمعه فى كل بقعة ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه فى المعسكرات ولا ينظر اليهودى إلى زميله نظرة العداء والمقاطعة وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين[1].

كانت أخلاق اليهود المعروفة لا تسمح لهم بالإقامة المستقرة فى فى العصور الوسطى إذ أضطرتهم الإمارات المسيحية إلى الجلاء القهرى والهجره العشرية فاتجهوا صوب الشمال الشرقى فى أوربا إلى ألمانيا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا كما أن اليهود الإنجليز قضى عليهم جميعاً فى فى سنة ١٢٩٠ بالنفى وتبعت انجلترا فى ذلك فرنسا ومدن أوربا الوسطى ودولها وبلغ ذلك الاجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أسبانيا والبرتغال فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر ولم ينج من هذه المعاملة الجماعية سوى الجماعات اليهودية الصغيرة فى إيطاليا .

ويرجع السبب فى هذا الإخراج الجماعى لليهود من الأوطان المسيحية التى أستوطنوها إلى الاحساس بالخطر من اليهود المقيمين باعتبارهم أجانب لامواطنين لأن الاقليات السورية واليونانية وغيرها التى هاجرت

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية ص ٩ .

مع اليهود إلى دول أوربا قد اندمجت فى شعوبها قبل القرن الحادى عشر ولكن الأقلية عاشت أول ماعاشت مختارة فى أحياء خاصة بهم ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنباً لشرّها واختلافها عن الباقين .

رأى المسيحى نتيجة تجربته أن اليهودى معول من المعاول الهدامة فى بنيان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية وذهب به الخوف منه إلى أن يتصور عنه أبشع التصورات العدائية للدين المسيحى ومعتنقيه وأن يكسوا مخالفة الحيوية بأخرى دينية وأسطورية .

لم يكن أفعل فى ذهن المسيحى وخياله من أن يرى بيوت المسيحيين تنهار دعائمها وتتقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذى ارتبط باسم اليهود بل أصبح عنوانا له فالمدين المسيحى لم يعد له كيان اقتصادى إزاء مغالاة المرابين اليهود فى فرض النسب الخيالية للفائدة على قروضهم .

نشبت العصبيّة بين اليهود والمسيحيين وترجع جذورها إلى مهد المسيحية وما صادفته من غدر اليهود وتبادل الطرفان التهم وأعمال الانتقام ووجد الناس فى الكنيسة المسيحية مُعبِّرا عما ينطوى عليه نفوسهم من مقت استشعروا به فى معاملاتهم اليومية فالكنيسة صوّرت اليهود تصويراً معبرا للكره فى المؤلفات الدينية والروايات الشعبية والأعمال الفنية .

وعبر (باركس) عن هذه الشعور فقال « لقد كان معتقداً أن اليهودى يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهذه الحاجات وكان معتقداً أنه يسم الآبار ، وينشر الأمراض وانتشرت الإشاعات دائما إلى كل بلد بأنه متحالف مع التتر وجميع أعداء المسيحيين ولقد كان فى ذاكرة عامة أوربا يمثل أكثر مصدر البلاء الاقتصادى ويمثل العدو الخبيث الخطر الذى يسعى أبد الدهر ليحطم كلا من بدن العدو المسيحى ونفسه » .

وصف (سنيكا) موقف اليهود من سكان العالم فقال « إن عادات هذه الأمة المجرمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون فى كل بلد ومن ثم فالمغزوون يفرضون قوانينهم على الغازى » ولم يتخلف نفوذ اليهود بعد اعتناق الإمبراطورية الرومانية المسيحية عما كان عليه فى عهدها الوثنى وإنما إزداد نتيجة تركزهم فى المهن التجارية والمالية ثم جاءت الفتوحات الإسلامية فى الشواطىء الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط فهيأت لهم فرصة احتكار التجارة فى أسواق أفريقية وسوريا وبما جنوا من ثروة فى العالم المسيحى والإسلامى ومابرعوا فيه من تخصص فى شئون المال والتجارة هاجروا مختارين إلى المدن التجارية الجديدة التى أنشئت فى شمال أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .



٦– اليهود فى أوروبا فى العصور الوسطى

رسمنا صوراً كثيرة واضحة لأحوال اليهود فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، ونرسم فى هذا الفصل صورة أخرى مغايرة لأحوال اليهود فى القارة الأوروبية فى هذه العصور الوسيطة ، ويستطيع القارىء فى يسر وسهولة أن يقارن بين أحوال اليهود فى الحالتين ، وسيرى مدى الفرق الشاسع بين التسامح الإسلامى ، والتعصب الأوروبى .

اخفاق اليهود فى تكوين دولة فى أوروبا .

منذ تدمير أورشليم على يد الكلدانيين فى سنة ٥٨٦ ق . م ، وتدميرها مرّة أخرى على يد الرومان سنة ٧٠ م ، أخفق الشعب اليهودى فى تكوين دولة ، فهم لم يشتهروا طوال عهدهم بأنهم أهل حرب وتنظيم وسياسة .

وقد فطن المفكر المسلم الكبير ابن خلدون ، فى القرن الرابع عشر الميلادى ، إلى هذه الحقيقة ، إذ فقد اليهود العصبية التى تقوم عليها الدولة ، وظلوا يجترون تراث الآباء والأجداد ، دون أن يكون لهم مقومات قومية توفّر الظروف لقيام الدولة . فقال ابن خلدون : « وقد يكون للبيت شرف أول بالعصبية والخلال ثم ينسلخون منه لذهابها بالحضارة كما تقـدّم ، ويختلطون بالغمار ويبقى فى نفوسهم وسواس ذلك الحسبَ يعدون به أنفسهم من أشراف البيوتات أهل العصائب وليسوا منها فى شىء لذهاب العصبية جملة ، وكثير من أهل الأمصار الناشئين فى بيوت العرب أو العجم لأول عهدهم موسوسون بذلك ، وأكثر مارسخ الوسواس فى ذلك لبنى إسرائيل ، فإنه كان بيت من أعظم بيوت العالم بالمنبت أولا ، لما تعدد سلفهم من الأنبياء والرسل من لدن إبراهيم عليه السلام إلى موسى

صاحب ملتهم وشريعتهم ، ثم بالعصبية ثانياً . وما أتاهم الله بها من الملك الذى وعدهم به ، ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الأرض وانفردوا بالاستبعاد للكفر آلافا من السنين ، ومازال هذا الوسواس مصاحبا لهم ، فتجدهم يقولون: هذا هاروني ، هذا من نسل يوشع ، هذا من عقب كالب ، هذا من سبط يهوذا ، مع ذهاب العصبية ، ورسوخ الذل فيهم منذ أعقاب متطاولة ».

وتوصل (والتر باجت) إلى نفس الحقيقة ، وهو المفكر الانجليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر ، فقد فطن أيضا ، مثلما فطن ابن خلدون ، إلى أن اليهود قد أضاعوا دولتهم ، وقد أخفقوا فى إعادتها إلى الحياة مرّة أخرى ، لأن مزايا التقدم التى كسبوها فى تطورهم لم تتحول إلى مزايا عسكرية . فهو يذكر أن اليهود فى تاريخهم تطوروا تطورا ملحوظاً فى الفكر الداخلى ، وخاصة من الناحية الدينية ، إلاّ أن مزايا حضارتهم استمرت مثلما بدأت دينية ، فلم تتخذطابعاً عسكرياً ولذا فنيت دولتهم » .

ووالتر باجت فى هذا يرى ضرورة توفر مزايا العسكرية عنـــد الأمم لتقوم عليها الدولة ، كما يرى ابن خلدون ضرورة توفر مزايا العصبية لتحقيق ذلك ، فكلاهما يؤكد قصور اليهود فى عالم السياسة والحرب ، ويضرب بهما المثل على الفشل بين الشعوب ، وكلاهما يقرن الحرب بالسياسة والعصبية بالحكم والتماسك بنشوء الدولة وازدهارها والتفكك القومى بسقوط الدول وانهيارها وفنائها(١).

---

(١) دكتور عبد المعز نصر : الصهيونية فى المجال الدولى ص ٩

اليهود في اوروبا شعب داخل شعب :

تطلق كلمة يهودى اعتباطا بوساطة اليهود وغيرهم على السواء . ويعرف القاموس كلمة « يهودى » بأنه عبرى من الجنس السامى ، والعبرية معناها إسرائيل . وهذه الكلمة مشتقة من « يهوذا » ، ومعناها « ابن يعقوب » ، وأحيانا تعبر عن الديانة اليهودية ، ولاتعترف الشيوعية بدين اليهود قياسا على عدم اعترافها بأى دين آخر ؛ وعندما يقول اليهودى عن نفسه أنه شيوعى فالمعروف أنه لا يشير إلى أصله العبرى .

واليهود خليط من عناصر مختلفة ، فقد تسربت القبائل العبرية التى احتلت الأراضى الفلسطينية وامتزجت بأسكان الاصليين الذين ينتمون إلى الأصل السورى والأناضولى ، ثم امتزجت بالعناصر البابلية والفارسية ، وعندما طرد اليهود من ديارهم وشردوا فى بقاع العـــالم زاد اختلاطهم بالعرب الذين رحبوا بهم فى القرن الثامن ، كما رحبوا بالأوروبيين .

وقد أحدث هذا الاختلاط ثلاث مجموعات يهودية مختلفة :

١ — الاشكنازيون : ويشملون أغلب يهود وسط أوروبا وشرقها ، وكلمة اشكيناز وردت فى الكتاب المقدس ومعناها ألمانيا .

٢ — السيفارديم : وهم اليهود الذين طردوا من أسبانيا والبرتغال فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى واستوطنوا جنوب أوربا والشرق الأدنى وشمال إفريقية وانجلترا ، وهاجروا ، فيما بعد إلى أمريكا .ولفظ (سيفارد) ورد فى الكتاب المقدس ومعناه أسبانيا .

٣ — اليهود الشرقيون : وهم الذين يعيشون منذ زمن بعيد فى الشرق

الأدنى وآسيا الصغرى . وهناك عناصر أخرى ، غير هذه العناصر الثلاثة ، أقل أهمية(١).

عجز اليهود ، منذ تدمير الرومان لمعبدهم فى أورشليم سنة ٧٠ م ، عن إقامة دولة تضم الشعب اليهودى ، فاليهود حين جلوا عن موطنهم فى فلسطين لم يهاجروا إلى مكان واحد ، لم يؤلفوا مجتمعا واحدا ، بل تفرقوا فى جميع أرجاء العالم المتحضر فى أوروبا وآسيا وافريقية ، وبالطبع لم تكن أمريكا قد اكتشفت بعد، وإلا لهاجر اليهود إليها أيضا. ولكن اليهود فى تفرقهم فى أنحاء العالم القديم والوسيط، لم ينسوا أبداً أنهم يهود، فلم يندمجوا فى الأقوام الذين عاشوا بينهم، وإنما احتفظوا بعزلتهم، وانفصال جماعاتهم عن المجتمعات الوطنية التى استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الخاصية التى تتنــافى والمواطنة الحقة ، ومن ثمّ كانوا دائماً موضع شك واضطهاد أينما ذهبوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة . وما أحسنت الظن بهم أمة من الأمم وأحسنت إليهم حقبة من الزمن إلا وعادت تقتص من إساءتهم إليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ، ولا تستشعر المشاعر العامة لسائر المواطنين .

يزعم اليهود دائما أنهم أمة كباقى الأمم ، بينما لانجد مظاهر الوطنية والقومية لها أثر فى حياتهم ، فإنهم فضلا عن حرمانهم من الوطن ، فقد هجروا لغتهم الأصلية العبرية ، وترجع صعوبة فهم الصفة الحقيقية للوطنية اليهودية إلى افتراضين ، لاثالث لهما ، أولهما أن الأمة لاتستطيع الحياة مالم تحتفظ بكل مميزات الوطنية ، وثانيهما ، أن الجماعة اليهودية إما أن تكون «أمة» مشتملة على كل عناصر تكوينها أو تكون لاشىء .

---

(١) جوزيف هيلر : الفكرة الصهيونية ص ١٢

ويرجع خطأ هذين الغرضين بالنسبة للأمة اليهودية إلى فقدانها عنصرين هامين ، أولهما أرض الوطن ، وثانيهما وحدة اللغة . فقد تشتت اليهود فى أرجاء العالم ولم يعد لهم أرض ذلك الوطن ، كما أنهم أهملوا لغتهم . وتحدثوا بلغات الدول التى هاجروا إليها ، ففقدوا بذلك مقومات الأمة .

أصبح اليهود فى الحقيقة بعد هجرتهم « شعب داخل شعب ، أو « أمة داخل أمة » ، وفقدوا كل مقومات القومية ، ولم يظهر شعور قومى عند اليهود إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث تحرر اليهود من الغموض الدينى ، وظهرت نواة حركة سياسية جديدة بعد أن زاد العداء للسامية فى غرب أوروبا ، وتوهم اليهود أن خلاصهم من الاضطهاد الذى يلاقونه يكون بطريق قيام دولة يهودية فى أرض الميعاد ، وهذه الدولة فى الحقيقة لا تستند على قومية أو عنصر ، إنما تقوم على أساس الدين اليهودى .

أحياء اليهود فى أوروبا :

مال اليهود دائما إلى حياة العزلة والانفصالية ، وقد حاول اليهود دائما تبرير هذه الروح الانفصالية بتبريرات اجتماعية واقتصادية ونفسية ودينية . وعاش اليهود فى أوروبا فى أحياء خاصة بهم ، يطلق على الحى منها اسم (جيتو) بينما لم نلحظ مثل هذه الأحياء فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، فقـــد أدى تسامح العرب والمسلمين إلى أن يعيش اليهود فى المجتمعات الإسلامية جنبا إلى جنب مع سائر أفراد المجتمع . ولم يلق اليهود فى أوروبا مثل هذه المعاملة السمحة ، مما جعلهم يعتزلون حياة المجتمعات الأوروبية وينكمشوا وينطووا على أنفسهم .

كانت كلمة (جيتو) تطلق على الحى أو الشارع الذى يعيش فيه اليهود رغم أنفهم وأصبح هذا اللفظ يطلق اعتباطاً على كل حيٍّ لليهود . وكان اليهود يتركون لشأنهم فى هذا الجيتو الذى يسكنونه دون أن يعنى بهم أحد إلا من حيث فرض الضرائب الظالمة . وكانوا فى حالة شبه مستقلة استقلالا ذاتياً يتولى شئونهم كبارهم، وكان اليهودى الرسمى هو ساكن الجيتو الذى يقيم فى عزلة تامة طوال السنوات من حياته ، ولم يكن هناك ما يستطيع الفرد اليهودى أن يفعله حيال ذلك ، فكان اليهودى حبيس الحى الذى ولد وشبّ فيه ، وكانت اليهودية تسيطر عليه ، ولاحيلة له إلا أن ينحنى سمعاً وطاعة للتقاليد التى تفرضها عليه العقيدة[1] .

كان من الممكن أن يكون اليهود مواطنين صالحين فى الدول التى عاشوا بين ربوعها لو أنهم استخدموا مزاياهم الحضارية فى خدمة الصالح العام إلاأنهم اشتهروا بغير ذلك ، بل بنقيض ذلك ، فالدين اليهودى والأخلاق اليهودية علمهم كيف يؤمنون بأنهم شعب الله المختار ، ورغم اتصالهم بالأجناس الأخرى إلا أن كثيراً منهم ظلوا لايعتقدون أن الله هو رب العالمين وليس رب اليهود فحسب .

تمسك اليهود بخصائصهم وطباعهم ، على مر العصور التاريخية ، وإن حفظ ذلك لهم ذاتيتهم ، إلا أنه باعد بينهم وبين الشعوب الأخرى التى استضافتهم ، فالشعور المتعصب بامتيازهم الدينى والثقافى والعنصرى إلى جانب عزلتهم وعدم انصهارهم فى المجتمعات التى آوتهم جعلهم دائماً موضع عداء زاد بدوره فى بعدهم وتزكية الصفات غير الاجتماعية بين أفرادهم ، فهم فى المجتمع وليسوا منه ، وهم يعيشون فيه ولا ينسبون إليه .

---

(١) جاك تنى : الطابور الخامس لصهيون ص ٤٦

وهذا الموقف الذى وجد اليهود أنفسهم فيه نتيجة لظروفهم التاريخية والدينية والاجتماعية ، وما أثارمن عداء متجدد نحوهم فى العصور القديمة الحديثة ، هو منبع الحركات المضادة للسامية بين الدول المسيحية،خاصة دول وسط أوربا وشرقيها ، كما أن منبع الصهيونية بين اليهود[١].

أصبح (الجيتو) أبرز مظاهر حياة اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى، نتيجة ميل اليهود إلى العزلة، واعتقاد اليهودى أنه يحمل من أسرار الكون أكثر من أى إنسان آخر . وكان اليهود إذا نزلوا دول أوروبا رفضوا الاختلاط بأهلها ، واختاروا لهم مكانا قصيا يعيشون فيه فى عزلة وانطواء والغريب أن اليهود يتهمون الدول الأوروبية أنها لم تكرم وفادتهم ، وأنها أنزلتهم فى هذه الأحياء ، مع أنهم هم الذين أختاروها لأنفسهم ونزلوا فيها ، وإذا تجرأ يهودى على الإقامة مع سائر أفراد المجتمع ، احتقره إخوانه اليهود وأتهموه بالإلحاد .

وفى هذه الأحياء اليهودية نشأ المجتمع اليهودى بأسراره وخفاياه. وفى هذه الأحياء ، وضعت الكتب اليهودية السرية التى لا يعرف العالم منها إلا القليل. وفى هذه الأحياء نشأت الهيئات السرية الرهيبة التى أرادت السيطرة على العالم . وفى هذه الأحياء نمت علوم السحر والشعوذة وبقية العلوم السرية الجهنمية .

وهذه العزلة هى التى جعلت اليهودى يحافظ على مستوى الدهاء ، والصفات النفسية والخلقية التى تميزوا بها عن سائر البشر . وقد نشأت فى هذه الأحياء اليهودية جمعات سرية صغيرة من المفكرين والعلماء ، مالوا

---

(١) الصهيونية فى المجال الدولى ص ١٢

إلى الكتابة والتأليف ، وكانت القواعد الرئيسية التى تسيطر على عقول هذه الجماعات هى :

١ ـ المحافظة على النفسية اليهودية ومنعها من الضياع فى تيارات الحياة الأوروبية .

٢ ـ نشر الحقد فى قلوب اليهود ضد العالم ونشر فكرة احتقار اليهودى لغيره من الشعوب .

٣ ـ العمل على أن يسترد الشعب اليهودى مكانه .

٤ ـ العمل من أجل سيادة الشعب اليهودى على العالم كله .

وقد قامت هذه الجماعات اليهودية بوضع عشرات من الكتب السرية الخطيرة التى تطرق هذه الموضوعات ، وتدفع اليهودى إلى التمسك بها وأصبح اليهودى لا يهتم بالتوراة قدر اهتمامه بهذه الكتب التى تنسخ التوراة وتحل محلها .

وهذا النشاط الفكرى اليهودى لم تكن غايته خدمة البشرية والإنسانية بل كانت أهدافه السيطرة على البشرية بأساليب غريبة ، أبرزها نشر البلبلة فى عقول الناس ، وبث بذور الفرقة بين صفوفهم ، والدعوة إلى الإنحلال الخلقى والاجتماعى .

وأدى هذا النشاط إلى تأليف جمعيات سرية منظمة تنظيما دينيا غريبا ، انتشرت فى أرجاء العالم . وقامت هذه الجمعيات على تقديس (الفرداى) أى الكاهن الأكبر لكل جمعية ، فأصبح لكل كاهن أتباع يؤمنون به ويقدمون له الأموال . وبدأ ظهور هذه الجمعيات فى القرن التاسع الميلادى ، ثم توسعت وانتشرت ، فظهرت جمعيات منها فى بغداد والأندلس وفى السلطنة العثمانية وأرجاء أوروبا . ورغم أن العالم كله

يتقدم ويتحرر من الآراء الرجعية القديمة إلا أن اليهود بقوا محافظين على هذه الجمعيات الرجعية التى تتسع باستمرار[١].

موقف الدول الأوروبية من اليهود :

أصبح اليهودى عدواً للمجتمع الأوروبى، فضلاعن عدائه للدين المسيحى، وأصبح تهديد اليهود للمجتمعات الأوروبية التى يعيشون فيها هو مصدر العداء التاريخى بينهم . فاليهودى جار سىء لغير اليهود ، ولم يعش على وفاق مع غيره من الأمم والملـــل عبر العصور التاريخية المختلفة .

ويبدو أن الأنانية والغرور والروح الانفصالية التى اشتهر بها اليهود ممَّا جعلهم لا يصبحون مواطنين صالحين فى الدول الأوروبية التى استقروا بها .

أدت خصائص وطبائع اليهود التقليدية المعروفة إلى حرمان اليهود من الإقامة المستقرة أو الهجرة المختارة فى العصور الوسطى . إذ اضطرتهم الإمارات المسيحية فى أكثر من حالة إلى الجلاء القهرى والهجرة القسرية فاتجهوا صوب الشمال الشرقى فى أوروبا ، إلى ألمانيا الشرقية وبوهيميا ، وخاصة بولندة . كما أن اليهود الإنجليز قُضى عليهم جميعا فى سنة ١٢٩٠ بالنفى، وتبعت إنجلترا فى ذلك فرنسا ودول أوروباومدنها. وبلغ ذلك الإجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أسبانيا والبرتغال فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى . ولم ينج من هذه المعاملة سوى الجماعات اليهودية الصغيرة فى إيطاليا . وكان هذا إخراجا ، وليس خروجا كما حدث فى مصر القديمة ، بل إن فرعون أظهر حرصاً على بقائهم فى ربوع بلاده على أن أن يعدّلوا من أسلوب حياتهم ، أما مسيحيو العصور الوسطى فلم يروا نجاة من الخطر اليهودى إلا فى إبعاد اليهود إبعادا غير مشروط .

---

(١) واكد . إسرائيل فى الميزان ص ٣١

إن هذا السبب فى هذا الإخراج الجماعى لليهودى من الأوطان المسيحية التى استوطنوها يقوم على الإحساس بالخطر من اليهود المقيمين، واعتبارهم أجانب لا مواطنين، لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التى هاجرت مع اليهود إلى دول أوروبا قد اندمجت فى شعوبها قبل القرن الحادى عشر الميلادى ، ولكن الأقلية اليهودية عاشت أول ما عاشت مختارة فى أحياء خاصة بها، ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنبا لشرها ونتيجة اختلافها عن باقى أفراد المجتمع[1].

اختار اليهود شكل حياتهم فى القارة الأوروبية ، ورأوا أن يستمروا فى عزلتهم وانفصاليتهم ، وفى عدائهم للأوروبيين . وظن اليهود أن مشاركتهم لغير اليهود حياتهم الاجتماعية تلوثهم وتفسدهم وتفقدهم خصائصهم ، ولذا التمسوا الاستقلال بأنفسهم عن غيرهم ،فى الفكر والعمل واعتقد اليهود أن الطابع الأوروبى فى التفكير والعمل ونظام الحياة ، ضارّ بالمثل والمبادىء والنظم والحياة اليهودية ، وفى رأيهم أن الطابع الأوروبى فى تطور دائم ، ولم يبلغ الكمال بعدهم ، أما الطابع اليهودى فهو كامل ومستقر . ولذا فقد عمل اليهود على تقويض أسس المجتمعات الأوروبية فسعوا إلى التفريق بين صاحب العمل وعماله ، وبين صاحب المال والأجير . وسعوا دائماً أيضا إلى التقليل من مكانة الحكومات وهيبتها ، وذلك بأساليب السياسة الفاسدة ، كما عبثوا بعقول الأوروبيين فقدموا اليهم المسرحيات والأفلام التافهة العابثة المنحلة .

أصبح اليهود فى أوروبا سوسة تنخر فى عظام الدول الأوروبية ، وضربوا كثيراً من أمثلة الجشع والاحتكار ، فقد كانوا يسعون إلى جمع الأموال مهما كانت الوسائل . وأصبح اليهود عنصر فرقة ، فالحرب هى

---

(١) الصهيونية فى المجال الدولى ص ٥١ .

موسم الحصاد عندهم ، يتاجرون فيه بالأسلحة حينا وبالجاسوسية أحيانا أخرى ، وكل ما يعنيهم من الحرب هو ماتدره عليهم من كسب ، لا ماتهدف إليه من عزة وطنية أو نصرة قومية .

ورغم هجرة اليهود إلى أوروبا ، واستقرارهم فى العديد من دول أوروبا ، فقد أصبح لهم آراء خاصة فى مسألة الجنس . ويستخلص مما كتبه أقطاب اليهود وقادة الفكر منهم أنهم ليسوا بطائفة أو شيعة ، وإنما هم أمة قائمة بذاتها ولها قوميتها . والدين عند اليهود هو حبهم لوطنهم الأصلى أما من حيث الجنس فانهم ينتسبون إلى يهوذا . وليس أدل على أن لليهود جنسا ، كما يزعمون ، من أنه يسهل على الإنسان إذا رأى يهوديا أن يقطع بأنه يهودى .

أصبح لليهود فى أوروبا برنامجان . أحدهما يبدونه لغير اليهود ، والآخر يحتفظون به لأنفسهم ، لا يعرفه إلا اليهود . ويشعر اليهودى ، فيما بينه وبين نفسه أنه ينتمى إلى قوم تربطه بهم رابطة الدم ، وهو وريث هؤلاء القوم فى ماضيهم ، وعليه واجب سياسى يؤديه نحوهم فى مستقبلهم ، ويشعر كذلك أنه ينتسب إلى جنس وإلى أمة ، ويحلم بأنه سيكون لهذه الأمة مملكة تفوق كافة ممالك الأرض ، ولسوف تحكم العالم من مقر الحكم فيها « مدينة أورشليم » ، على حد زعم الكاتب اليهودى .

شنّ اليهود حربا شعواء على دول أوروبا ، وعمدوا إلى تشويه الحقائق ، والسيطرة على صحافتها وسلكيها الدبلوماسى ، وظلوا يزعمون أنهم الشعب المختار ، ويروجون قول المسيح لتلاميذه الأول عن اليهود ما معناه (ويل لمن يعاديكم) . وظل اليهود يزعمون أنهم ليسوا أمة ممتازة فحسب بل « دولة » وأن لهم وعيا قوميا يوحّد كلمتهم للدفاع عن أنفسهم وحماية مصالحهم المشتركة من اعتداء عدوهم المشترك ، وهو العالم غير اليهودى :

أدت قلة عدد اليهود فى أوروبا ، بالنسبة للمجتمعات الأوربية ، إلى تمسكهم بعنصريتهم ، والتمسوا القوة بالمال ، وعملوا على جمعه بالتجارة والصناعة والربا . ولم يفكروا كثيرا فى الزراعة ، لأنها تحتاج إلى بذل جهد كبير وتخضع لتقلبات الطبيعة ، ذلك إلى أنها أقل جدوى من غيرها ، والتجارة والصناعة تتيحان لهم سكنى المدن حيث الحراسة والأمن .

أدت وفرة المال فى أيديهم ، وشدة الرغبة فى تحسين مركزهم ، وتجمعهم فى المدن . إلى اقبالهم على التعليم ؛ ليتقوا بالعلم ، ولضمان مستقبلهم . وللمحافظة على المركز الاجتماعى والمالى ، وظل اليهود فى أوروبا يعتقدون أنهم أحسن خلق الله عنصرا وجنسا ، مما جعلهم موضع كراهية الأوروبيين ، ولكن اليهود زعموا أن هذه الكراهية نتيجة اختلاف الأديان . أو نتيجة غيرة الأوروبيين منهم ، أو حسدهم لهم ، لتفوقهم فى النشاط الاقتصادى .

وأدت العزلة النفسية التى عاش اليهود فيها عبر قرون طويلة إلى اتصاف اليهودى بعقلية قاسية تميل إلى الشر والهدم وسفك الدماء . كما أن تعاليم التلمود تحتوى على قواعد إجتماعية ذات طابع وحشى غير انسانى، فهى تدعو اليهودى إلى قتل غير اليهودى وسلب ممتلكاتهم ، وتدعو إلى اعتزال بقيّة الناس واحتقارهم واستعبادهم ، واقتراف الفظائع ضدهم ، وتدعو إلى قتل الأسرى ، والاعتداء على النساء والأطفال ، وإلى الهدم والتخريب وإلى استعمال القسوة والشراسة . فلا عجب إذن أن كره الأوربيون اليهود .

يذكر المؤرخون اليهود أن اليهود ذاقوا فى أوروبا فى العصور الوسطى ألوان العذاب ، وأن معاملة لأوروبيين المسيحيين لليهود كانت تنطوى على التحقير والكراهية والتحكم فى نشاطهم الإقتصادى ، ووجدت عوامل الكراهية متنفسا لها فى المذابح الجماعية ، والجرائم الخفية .

وترجع هذه الظاهرة فى العصور الوسطى إلى العداء المستحكم بين الدين المسيحى والعقيدة اليهودية، فقد كره المسيحيون اليهود لأنهم سلالة الذين أنكروا المسيح، وطبقا لتعاليم الكنيسة كتب على اليهود أن يحيوا حياة التشرد والارتحال لا يستقر لهم قرار. وهكذا نظر إلى آلام الشعب اليهودى على أنها لعنة من الله حلّت بهم لانكارهم المسيح وتعذيبه[1].

والحقيقة أن اليهود قد جرّوا على أنفسهم سخط الأوروبيين، نتيجة مواقفهم وأساليبهم فى الميادين السياسية والاقتصادية، فقد جهروا بمعارضة التعاليم المسيحية، بل عارضوا قيام رؤساء الدول المسيحية بالقسم على الانجيل، فهم لا يؤمنون بغير العهد القديم، وحاول اليهود أن يزيلوا من المدارس كل ما يوحى إلى التلاميذ بأنهم يعيشون فى بيئة مسيحية، وفى أمة تدين بالتعاليم المسيحية. وتنكر اليهود لوطنية الدولة التى يعيشون فى ظلها. واعتزوا بيهوديتهم وبأنهم شعب الله المختار.

عمل اليهود فى أوروبا فى العصور الوسطى على السيطرة على النشاط الاقتصادى، وتعاملوا بالربا الفاحش، مما أدى إلى انهيار اقتصاديات بعض الدول والمؤسسات الأوربية، وانتشر المرابون اليهود فى أرجاء أوروبا، يقرضون الأفراد والهيئات بالربا الفاحش، مما أدى إلى انتشار الفقر، حتى أن المرابين اليهود فى فرنسا اضطروا فى منتصف القرن الرابع عشر إلى أن يخفضوا الفائدة على رباهم فى المناطق الزراعية من بنسين إلى إلى بنس واحد أسبوعيا فى الجنيه أى من ٤٢٪ إلى ٢١⅔٪ وذلك لفقر الفلاحين المدقع، ولكن فى سنة ١٣٦٠ حين ازداد الفلاحون فقرا بسبب الحروب والوباء والمحاصيل السيئة، ازداد الربا فجأة إلى أربعة بنسات (٨٦⅔٪) لأنه كان على التاج أن يجمع مبالغ هائلة ليدفع للانجليز

---

(١) جوزيف هيلر . الفكرة الصهيونية ص ٥٤ .

الفديه المطلوبة عن الملك يوحنا الطيب ، الذى أخذ أسيرا فى موقعة (بواتييه) .

نجح اليهود فى أوروبا فى ميادين المال والتجارة ، نتيجة قدرتهم على انتهاز الفرص فاليهودى يعرف ماذا يفعل ، ومتى ، وكيف ، ولماذا هو فاعله . والسيطرة على اقتصاديات أوروبا هى جزء من سياسة اليهود العامة فى السيطرة على العالم ؛ لا بالقوة العسكرية ، ولا بالسيطرة الحكومية وحدها ، بل بالتسلط الاقتصادى القائم على التقدم العلمى ، والإمساك بزمام التجارة العالمية والتحكم فيها .

ومما يذكر أن اليهود أينما أقاموا فى أوروبا تركزت الأعمال والإقتصاد حيث أقاموا ، وكلما رحلوا انتقلت مراكزها معهم حيثما حلوا . فقد كانت أسبانيا مركز الذهب فى العالم طالما كان اليهود هناك ، ولما طردوا من أسبانيا خسرت البلاد بفقدهم ما كان لها من مكانة فى هذا الشأن . وشبيه بهذا انتقال مركز التجارة فى أوروبا من الجنوب إلى الشمال . لمّا غادر اليهود ايطاليا وأسبانيا والبرتغال ، ونزلوا فى هوانده وألمانيا وانجلترا . فقد أدرك اليهود أن الاقتصاد هو أساس كيان العالم . ومن يملك زمام الاقتصاد ملك زمام الموقف فى هذا العالم[1].

قابل الأوروبيون هذا الاحتكار والاستغلال بالحنق على اليهود ، وبإذرائهم لهم ، مما أدى إلى إنعاش روح العصبية بين اليهودية والمسيحية وتبادل الطرفان التهم وأعمال الانتقام . ووجد الناس فى الكنيسة المسيحية معبراً عما تنطوى عليه نفوسهم من مقت استشعروه فى معاملاتهم اليومية فالكنيسة صوّرت اليهود تصويرا مثيرا للكراهية فى مؤلفاتها الدينية ورواياتها الشعبية ، وأعمالها الفنيّة . ولقد انتهى اجتماع التجربة الواقعية

---

(١) من كتاب الصهيونى العالمى ص ٤٢

والعداء الدينية والتعاليم الكنيسية إلى أن يرسخ فى أذهان عامة المسيحيين الصورة التقليدية عن اليهودى .

ورسم (باركس) الخطوط الرئيسية لهذه الصورة فقال : « لقد كان معتقداً أن اليهودى يطلب دم المسيحى لأغراض الطقوس الدينية ، وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهذه الحاجات . وكان معتقداً أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض . وانتشرت الإشاعات دائما من إلى بلد بلد بأنه فى حلف مع العرب المسلمين والتتر وجميع أعداء المسيحية .

ولقد كان فى ذاكرة عامة أوروبا يمثل أكثر من مجرد البلاء الاقتصادى فقد كان يمثل العدو الخبيث الخطر الذى يسعى أبد الدهر ليحطم كلا من بدن العدو المسيحى نفسه »[1] .

لم تمت العداوة المريرة بين المسيحى واليهودى طوال العصور الوسطى وقد تختفى أحيانا لتظهر بعد فترة وجيزة ، مع اختفاء اليهود وظهورهم كقوة من قوى المجتمع المسيحى . فطردهم الشامل من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر أعاد انتشارهم ، فهاجروا إلى بلاد البلقان وسوريا ومدن شمال أفريقية ، كما أنشأوا على التدريج جماعات يهودية جديدة هامة فى هولندة وإنجلترا والمدن التجارية المحاذية للمحيط الأطلسى من همبورج إلى بايون . وقد أضاف إلى هذه الجماعات اليهودية اللاجئة إلى الغرب ماحدث من اضطراب فى القرن التالى بين طوائف اليهود فى بولنده التى تجمعت من قبل على حدود روسيا ، فلحقت جماعات منها بمراكز اليهود الإسبان ، وهنالك كانوا يعرفون باليهود الإسبان واليهود الألمان ، وكان الاحترام على وجه العموم من نصيب الأول ، والازدراء من نصيب

---

(١) أنظر كتاب الصهيونية فى المجال الدولى ص ٥٣

الآخرين . ولكن واصلت الطائفتان فى المراكز الجديدة الأعمال التقليدية التى آثرها اليهود طوال الأجيال ، وهى أعمال التجارة والمال [١].

أدى نشاط اليهودى الإقتصادى وسيطرتهم على بعض الدول الأوروبية إلى موجة عارمة من كراهية الأوروبيين لليهود ، واضطهادهم لهم ، وبدأ اليهود يروجون رأياً مقتضاه أنه من خطل الرأى الاعتقاد بأن الذنوب التى اقترفها اليهود محال أن يكفرها الشعب اليهودى بوسائل سياسية ودنيوية . فإن النفى وحياة التشرد التى يحياها هذا الشعب إنما هو عقاب فرضته القوة الإلهية على اليهود ، وزعم اليهود أن هذا العقاب لن يمحى إلا بمعجزة من السماء ، وواجب اليهود أن يظلوا صابرين حتى تأتى رحمة الله ويبعث المسيح لينقذ شعبه المختار .

وأصبح اليهود فى أوروبا فى العصور الوسطى من أسس النظم الإقطاعية التى كانت سائدة فى أوروبا فى تلك العصور ، وكان اليهود أيضاً من عوامل نمو النظام الرأسمالى ، وأصبح اليهود يمثلون الحضارة المادية التى تبعد تماماً عن الجوانب الروحية . واحتكر اليهود فى أوروبا كل ما يسيطر على الأوروبى ، سواء على عقله أو روحه أو عواطفه . وعمل اليهود على إضعاف المجتمعات الأوروبية وإشاعة الفساد بينها ، فغير اليهود فى نظرهم قطعان الأنعام .

لم تظهر القومية اليهودية فى إطار واضح محدد المعالم فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وإنما ظهرت الروح القومية عند اليهود فى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث تحررت من الاعتماد على الغموض الدينى الذى ساد طوال العصور الوسطى ، وكلما زاد العداء للسامية فى غرب أوروبا نمت الروح القومية اليهودية ، وزعم اليهود أن خلاصهم من الاضطهاد الذى يلاقونه

---

(١) الصهيونية فى المجال الدولى ص ٥٤

لن يأتى عن سبيل الإيمان بظهور المسيح أو بالعزلة الروحية ، بل سيكون بقيام الدولة اليهودية فعلا فى أرض الميعاد .

ولذا أخذ اليهود يزعمون أن اليهود أمة كسائر الأمم لهم حق الحرية فى اختيار الحياة التى تحياها دون تدخل باقى الأمم . كما زعموا أن الأمة اليهودية يجب أن تستقر فى وطن خارجى لأن ذلك سيخفف من حدة الكراهية التى يشعر بها العالم نحو السامية . كما أنه ، فى زعمهم أيضا ، يقضى على المشكلة اليهودية تماما .



٧ – حضارة العرب أرقى من حضارة اليهود

لا تراث حضارى لليهود :

قبل ظهور اليهودية ، كانت الفوضى الدينية تغمر العالم القديم ثم ظهرت اليهودية فى أطراف آسيا الغربية ، تحاول نشر نفوذها وتعاليمها فى الشرقين الأدنى والاوسط أى فى جزيرة العرب والهند والصين ، ثم فى أوروبا . ولكنها فشلت من أول الطريق ، لأن الإسرائيليين الذين قاموا يبشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش عيشة البداوة والانحطاط ، ليست لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والدنيا ، أوبين العبادة والعلم والشئون الروحانية، ومتطلبات الحضارة كالرفاهية والشورى والتنظيم والعمران بينما كانت الحضارات فى كل من إيران والهند والصين فضلا عن الحضارة الرومانية الأوروبية نالت نصيبا كبيراً من التقدم والتكامل . ومن البديهى أن طلب الإنصياع من قوم متحضرين إلى قبول دعوه قوم يعيشون فى عالم من الجهل والبداوة مهما كانت دعوتهم هذه منصرفة إلى أغراض دينية سماوية لا تلقى طبعا غير الإعراض والسخرية .

ومن البديهى أيضا ، أن تقابل تلك الرسالة التى يحملها ذلك الإسرائيلى والذى على جانب ضئيل من الحضارة بمثل هذا الاعراض من الهندى والصينى والإيرانى والرمانى ،الذين كانوايرون أنفسهم أعظم رقيّا وحضارة وثقافة ونظاما ، ولا ينقصهم فى نفس الوقت دين يلجأون إلى عبادة فلديهم آلهة كثيرة يعبدون من يشاؤوا منها ، ولايرون فى أنفسهم حاجة إلى تبديلها طالما أنها تغمرهم بكل ماترنو إليه ميولهم الزمنية والدنيوية من شهوات وآمال ومتعات لحياتهم الحافلة بالحضارة .

ليس لليهود فلسفة شعرية أو عملية أو آثار فنية ، وكل مافى الأمر أنهم خصصوا أنفسهم للعبادة القائمة على المتاجرة والانتفاع . فلا يوجد بينهم ، ولا سيما قديما من كرس نفسه للفن والعلم والفلسفة وإذا كانت لهم هنالك فكرة فلسفية خاصة فأنك لتجدها محصورة فى قولهم أن بينهم وبين الله عقدا مبرما يتخلص أن الله خلق هذا الكون لأجل اليهود فقط أما بقية الشعوب فلا محل عند (يهوذا) أى عند الله للتكبير فيها سواء أعبدوه أم لم يعبدوه إلا فيما يتعلق بأمور عرضية .

لانجد عند اليهود ثقافات أدبية وفنية . أو ثقافات فلسفية وأخلاقية يتيدون به العالم . فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة ، دور البداوة ودور المملكة ودور التشتت فى العالم - لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات العلم والفلسفة ، فلم يخرجوا للعالم من أيام الخليل إلى أيام المسيح عالما ولا أديبا ولا فيلسوفا - ولا رحالة . وكل محصولهم من الكتب المقروءة فإنما هو تلك المواعظ والقوانيم التى وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكم والدراسة العملية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطرهم إلى المعيشة بين تلك الأمم فى المشرق والمغرب[1] .

عقلية اليهود :

كانت أهم مظاهر الحياة اليهودية فى خلال القرون الطويلة الماضية هو الميل إلى العزلة والاعتقاد بأن اليهودى يحمل من أسرار الكون أكثر من أى إنسان آخر وكان اليهود إذا نزلوا مكانا رفضوا الاختلاط بأهله واختاروا لهم فيه زاوية بعيدة عن الأنظار وأقاموا فيها مساكنهم .وقد عرفت أحياء اليهود فى أوروبا . باسم « جيتو » وفى هذه الأحياء اليهودية

---

(١) العقاد . الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص ٦٨

نشأ المجتمع اليهودى بأسراره وخفاياه وفى هذه الأحياء وُضعت الكتب اليهودية السرّية التى لا يعرف العالم عنها إلا القليل . وفى هذه الأحياء نشأت الهيئات السرية الرهيبة التى أرادت السيطرة على العالم . وفى هذه الأحياء نمت علوم السحر والشعوذة وبقية العلوم السرية .

إن هذه العزلة التى عاش فيها اليهودى كانت سبباً فى محافظته على مستوى الذكاء والدهاء ، ومحاولة اختراق الحجب والأسرار . وقد نشأت فى هذه الأحياء اليهودية جماعات سرية صغيرة من المفكرين والعلماء مالوا إلى الكتابة والتأليف . وكانت القواعد الرئيسية التى تسيطر على عقول هذه الجماعات هى :

١ — المحافظة على النفسية اليهودية عند اليهود ليمنعوها من الضياع فى تيار الغــربة .

٢ — نشر الحقد فى قلوب اليهود ضد العالم ونشر فكرة احتقار اليهودى لغيره من الشعوب .

٣ — العمل على أن يسترد الشعب اليهودى مكانه .

٤ — العمل من أجل سيادة الشعب اليهودى للعالم كله .

ولقد قامت هذه الجماعات اليهودية بوضع عشرات من الكتب السرية الخطيرة التى تطرق هذه المواضيع وتدفع اليهودى إلى التمسك بها ، وأصبح اليهودى لا يهتم بالثورات أهميته بهذه الكتب ويعتبر أن هذه الكتب تفسح الثورات وتحل محلها .

وكل من يطلع على ماورد فى هذه الكتب السرية يشعر بالتأثير الذى أحدثته فى عقلية اليهودى على مدى السنين ، ويشعر بأن العقلية اليهودية تختلف فى تفكيرها واتجاهاتها عن عقلية البشر جميعاً وأن هذا الاتجاه

قد أحدث تأثيره فى تاريخ العالم كله ؛ وحاول أن يفرض طابعه على البشرية جمعاء ، لكى يضعها تحت طاعة حكماء اليهود . فإن السحر بجميع أسراره وأنواعه جاء من العقلية اليهودية والايمان والأشباح ونقص الأرواح ومخاطبة الأرواح جاء من هذه العقلية ، والعرافة والتدجيل والتكهن بالمستقبل والايمان بالمسيح المنتظر وقراءة الكف والنجوم والطوالع كل ذلك جاء من العقلية اليهودية .

هذا النشاط الفكرى اليهودى لم تكن غايته خدمة البشرية والانسانية بل كانت هدفه هذه السيطرة على البشرية بأساليب شيطانية غريبة أهمها نشر البلبلة فى عقول الناس وتفريق صفوفهم ودفعهم نحو الانحطاط والعجز .

وقد أدى هذا النشاط والاجتهاد إلى تأليف جمعيات سرية منظمة تنظيما دينياً غريباً ، وتنتشر فى جميع أنحاء العالم ـ ومازالت هذه الجمعيات قائمة حتى الآن ، وقد أصبح بعضها صهيونيا ؛ ومازال البعض الآخر يهوديا متدينا .

ثقافة اليهود محدودة

إن الصهيونيين مكروهون فى كل مكان وزمان وهم يعرفون ذلك ولايجهلونه ولكنهم لايعترفون به لمجرد الاعتراف بالواقع الظاهر المتواتر ، بل يعترفون به لأنهم ينتفعون منه ، ولأن دعواهم كلها قائمة على شكوى الظلم والاضطهاد وعلى الحاجة الملحة إلى الانصاف على أنهم يسلبون أن العلة منهم ، ولكنها علة تشرفهم ولاتضرهم . والعلة فى زعمهم أنهم قوم محسودون . لأنهم قوم ممتازون بالنبوغ والنجاح ، وأنهم أصحاب كفايات لم تجتمع لغيرهم من الأمم . ومنهم ناجحون فى ميادين الأعمال وناجحون

فى ميادين العلوم والفنون ، وخليق بهذه الكفايات النادرة والنجاح الملحوظ أن يجلب الحسد والكراهية ، لغير ذنب جنوه وهذا هو الوهم الباطل بحذافيره[1].

لم يحدث أن اليهود أنشأوا لهم ثقافة مستقلة قط فى زمن من الأزمان وإنما يستفيد اليهودى الألمانى من ثقافة ألمانيا ، ويستفيد الصهيونى الانجليزى من ثقافة انجلترا ويستفيد اليهودى الأمريكى من ثقافة أمريكا . ويقال مثل ذلك عن اليهود فى إيطاليا وسويسرا وهولنده وبلجيكا . فهم يستفيدون من ثقافات هذه الأمم وينبغى لذلك أن يكون الناجحون منهم فى العلوم والفنون أضعاف الناجحين من جميع الأمم بالنسبة لعددها ولكنهم ـ بالنسبة إلى عددهم وبالنسبة لعددها . ولكنهم ـ بالنسبة إلى استفادتهم من جميع الأمم أقل من غيرهم فى عدد النابغين بكثير .

إن المقياس الصحيح لنبوع اليهود فى العلوم والفنون هو تاريخهم القديم وقد كانت فى الاسكندرية مكتبة جمعت مئات الألوف من المجلدات فى الطب والفلك والجغرافية والحكمة والرياضة وسائر العلوم ، وكانت هذه المكتبة الجامعة التى احترقت فى بعض الحروب عنواناً لثقافة الأمم القديمة من يونان ورومان وبابليين ومصريين ، وكانت فيها محفوظات من تواليف هذه الأمم ومقتبساتها ، فكم كتاب كانت فيها من تواليف اليهود القدماء ؟ وكم أثراً من آثارهم فى علوم الفلك والجغرافية أو الهندسة أو الطب أو الفلسفة ، أو غيرها من ثمرات العقول الإنسانية ؟

والإجابة على هذا السؤال يسير : لا شىء ، لا كتاب ، ولا أثر ، ولا ثمرة وهذا هو المقياس الصحيح المعقول .

---

(١) العقاد الصهيونية العالمية ص ٥٠

ولقد كان أذكياء اليهود يخففون من هذه السبة وكان أذكياء الأمم يعيرونهم بها ويسألونهم عنها ، كما فعل (إبيان) حيث وجه السؤال بصددها إلى المؤرخ اليهودى (يوسفيوس) فبماذا أجابه يوسفيوس ؟ أنه لم ينكر السبة لأنه لا سبيل للانكار ، وإنما اعترف بها واعتذر عنها كما قال مانصه إننا نسكن بلداً بعيد عن البحر ، ولا نتصل بالمعاملات ، وليست بيننا وبين الأمم مواصلات فهل من العجب أن أمة كهذه الأمة على بعدها على البحر قبل اشتغالها بالكتابة — تظل مجهولة بين غيرها ؟

وقد أورد (فولتير) هذه العبارة ، فعلق عليها قائلا : على فرض أن كتب العهد القديم تعد من كتب اليهود إلا أنه لا بد أن نلاحظ أن اثنين وعشرين كتاباً صغيراً ليست بالعدد الكبير إذا نظرنا إلى أقسام الكتب التى كانت محفوظة فى مكتبة الاسكندرية . . . ولا شك أن اليهود قد كتبوا قليلا وقرأوا قليلا وأنهم كانوا على جهل مطبق فى علوم الهيئة والرياضة والجغرافية والطبيعيات ، وأنهم لم يفقهوا شيئاً عن تواريخ الأمم الأخرى ولم يبدأوا بالتعلم إلا فى الاسكندرية حيث أخذوا يهتمون بتحصيل بعض المعارف وما كانت لغتهم إلا خليطاً بربرياً من الفينيقية والكلدانية المحرفة ، ناقصة فى تصريفات الأفعال فقيرة فى أدوات التعبير ، وهم عدا هذا لا يظهرون الغرباء على كتبهم ولا على عناوينها .

تلك حقيقة الدعوة التى يروجها اليهود عن النبوغ المحسود ، وعن الكراهية التى يثيرها فى النفوس امتيازهم بالكفايات والملكات ، فهم فى الثقافة عالة على كل أمة ، يستمدون منها التعليم ، وهم فى ميادين العمل دون غيرهم من الأمم[1] .

---

(١) من كتاب (اليهودى العالمى)

هل نجح اليهود فى ميادين الاقتصاد :

هناك خطة يهودية صهيونية للسيطرة على العالم ، لا بالقوة العسكرية ولا بالسيطرة الحكومية ولا بالتسلط الاقتصادى القائم على التقدم العلمى ولكن بشىء واحد هوملك زمام التجارة العالمية والتحكم فيها وأقدر الناس على هذا هم اليهود(١) .

إن لمعان اليهود فى ميادين المال والتجارة وقوة نفوذهم السياسى فى الوقت الحاضر إنما يرجع إلى صفات متأصلة فيهم ، وهى الوحدة والقدرة على انتهاز الفرص المواتية واليهودى يعرف ماذا يفعل ، ومتى وكيف ولماذا وهو فاعله .

ومما يذكر أن اليهود أينما أقاموا تركزت الأعمال حيث أقاموا ، وكلما رحلوا انتقلت مراكزها معهم حيثما حلوا . والدليل على ذلك أن أسبانيا كانت مركز الذهب فى العالم طالما كان اليهود هناك . ولما طردوا من أسبانيا خسرت البلاد بفقدهم ما كان لها من مكانة فى هذا الشأن . وشبيه بهذا انتقال مركز التجارة فى أوروبا من الجنوب إلى الشمال ، لما غادر اليهود إيطاليا وأسبانيا والبرتغال ونزلوا هولندا وألمانيا وانجلترا فالاقتصاد هو أساس كيان العالم ، ومن يملك زمام الاقتصاد ملك زمام الموقف فى هذا العالم .

ومن جهة أخرى ، أثبت اليهود أنهم لا يصلحون للزراعة . فقد ظهرت بشرق أوروبا فى مستهل القرن ١٤ حركة زراعية يهودية ، ولكن لم يبد نشاطها على أشده إلا فى الثلث الأخير من هذا القرن . وكان الغرض منها هو توجيه اليهودية إلى ناحية الزراعة ، فأنشئت لهم مستعمرات فى الأرجنتين وفى أوكرانيا وغيرهما ، ولكن هذه المحاولات لم تعد بنتائج مبشرة لأن اليهود أنفسهم لا يصلحون لحياة الزراعة(٢).

---

(١) من كتاب اليهودى العالمى

(٢) جوزيف هيلر . الفكرة الصهيونية ص ١٧

الثقافة العربية ارقى من الثقافة العبرية :

الثقافة العربية هى ثقافة الأمة التى نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها ، كما كانت على الألسنة فى كل دور من أدوارها على سنة التطور فى جميع اللغات .

عاش العرب طوال حياتهم على مر العصور على اتصال مباشر باخوانهم فى البشرية فى شتى أنحاء العالم ، وساهموا بنصيب كبير فى تطور الحضارة والمدنية فى شتى ميادينها وعلى اختلاف ألوانها ، وحاولوا دائماً أن يتطوروا من حسن إلى أحسن ، فكان للعرب دائماً رسالة عالمية إنسانية(١)

إنه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة اليهود الدينية المصورة فى هذا الحيز المحدود أنها رسالة عالمية . أو أنها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول إلى فقد الحياة حين يقال : إن العبرية هى التى نهضت بأمانة الرسالة العالمية فى تاريخ بنى الإنسان ، وأن تعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق فى وادى النيل وفى وادى النهرين وفى شبه الجزيرة العربية ، فيقال أن تلك الحضارات جميعاً لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لها رب العبريين ، رب الصواعق والجنود(٢)

الحضارة والثقافة فى اسرائيل الآن :

فى إسرائيل ألوان كثيرة متباينة من الحضارة والثقافة نتيجة لتباين الأجناس والأديان فهناك : اليونان الارثوذكس والأقباط الأرثوذكس

(١) العرب ورسالتهم الإنسانية للمؤلف ص ٥٢
(٢) العقاد الثقافة العربية ص ٦٢

والأرمن الكاثوليك، واليونان الكاثوليك والبروتستانت الأوروبيون والنساطرة والدروز إلى جانب اليهود والمسلمين.

وتنتشر بينهم جميعاً عدة لغات: الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية، والهولندية، واللغات السلافية، وكذلك العربية، والآرامية واللغة الأولى بطبيعة الحال هي اللغة العبرية.

ينقسم السكان إلى فريقين يتقاربان عدداً، أحدهما يهود نزحوا من أوروبا وهؤلاء هم الذين يسيطرون على الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، والفريق الثاني من أصل شرقي يهود كانوا أو غير يهود، وهؤلاء متأخرون متقاربون في حظوظهم الضئيلة بجانب غيرهم الذي من أصل عربي.

إن العادة جرت في إسرائيل على المناداة بإعادة تهذيب وتثقيف يهود الشرق، ويجب أن يعاد تشكيل تفكيرهم وشخصيتهم بحيث يصبحون نسخة من يهود أوروبا، وأنه حين لا ينفع الإغراء والترغيب في الوصول إلى تلك النتيجة يجب أن يأخذ التشريع والإرغام مجراه.

وهذا الرأي يشبه رأي الأوروبيين في القرن ١٩ في شعوب البلاد التي كانوا يخضعونها لسلطانهم، وهي جريمة موجهة من دولة إسرائيلية ضد جماعات اليهود الشرقيين بحيث لا تتكرر الأخطاء الإستعمارية التي كانت في القرن ١٩، وألا تستغل النظريات المختلفة في التعامل مع الثقافات ومهما كانت طبيعتها وطريقة تفاعلها(١).

---

(١) رافائيل × باتاي: إسرائيل بين الشرق والغرب

فى أوائل شهر أغسطس سنة ١٩٥٧ عقدت فى إسرائيل حلقة علمية خطيرة ، اشترك فيها عدد كبير من مفكرى اليهود وزعمائهم وعلمائهم فى أنحاء العالم . وكان القصد من عقد هذه الحلقة هو القيام بدراسات اجتماعية لمعرفة أسباب التدهور الثقافى والاجتماعى الذى أصاب يهود إسرائيل بعد إنشاء الدولة ، وأسباب تدهور العلاقات الاجتماعية بين يهود إسرائيل وبقية يهود العالم وأسباب فشل الأيدولوجيا الصهيونية فى جذب يهود العالم نحو إسرائيل لكى يعتبرونها دولتهم ويهاجرون إليها .

وقد تكلم فى هذه الحلقة ٧٢ مفكراً يهودياً . وعلى رأسهم (دافيدين جوريون) رئيس حكومة إسرائيل والدكتور (ناحوم جولدمان) رئيس الجمعية الصهيونية العالمية ، و (عمانويل نيومن) رئيس الجمعية الصهيونية لنشر المعرفة اليهودية .

وقد اتفق الجميع على أن المجتمع اليهودى مريض وأن هـذا المرض منتشر بين جميع اليهود فى إسرائيل والخارج . وأن هذا المجتمع لم يستطع أن يغسل نفسه من أدران الماضى وفشل فى تكوين بيئة إجتماعية تقدمية مستقلة وأن هـــذا المجتمع اليهودى يشبه برج بابل ليس له طابع خاص .

وقد اختلف أعضاء الحلقة فى تعيين أسباب هذا الفشل . فقال بعضهم أن السبب فى ذلك هو الدين اليهودى وتعاليم التوراة والتلمود . فإن هذه التعاليم الدينية تحتوى على قواعد إجتماعية ذات طابع وحشى غير إنسانى فهى تدعو اليهودى إلى قتل غير اليهود وسلب ممتلكاتهم وتدعو إلى اعتزال بقية الناس واحتقارهم واستعبادهم واقتراف الفظائع ضدهم وتدعوه إلى قتل

الأسرى والاعتداء على النساء والأطفال وتدعوه إلى الهدم والتخريب وإلى استعمال القسوة والشراسة.

ولكن بعض هؤلاء العلماء يقولون أن السبب الرئيسي فى نقمة اليهودى على العالم هو العزلة النفسية التى عاش فيها عبر القرون وهى التى خلقت لديه عقلية قاسية تميل إلى الشر وتميل إلى الهدم وسفك الدماء .





٨ — بين الخطر المغولى والخطر اليهودى

التاريخ يعيد نفسه دائماً ، وما أشبه اليوم بالبارحة .وما الخطر اليهودى الصهيونى اليوم إلا صورة متكررة من الخطر المغولى التتارى بالأمس .

وإذا بحثنا عن أصل كل من المغول واليهود ، نجد تشابها كبيراً . فالمغول فى الأصل قبائل بدوية رعوية بدائية الحضارة ، دفعها القحط والجدب فى بلادها فى وسط آسيا إلى الإغارة على المدن والقرى المجاورة حيث أعملوا القتل والسلب والنهب . أما اليهود فهم فى الأصل جماعات متأخرة بدوية ، ولذا رفض الفرس والرومان اعتناق اليهودية عند أول ظهورها، فقد كانوا أرقى حضارة من اليهود .

ونادى المغول بنظرية تنطوى على التعصب العنصرى، وتشبه نظرية اليهود العنصرية اليوم ، فقد اعتبر المغول جنسهم هو الجنس الذى يجب أن يسود، وعليهم أن يقضوا على سائر الأجناس، فقد كان شعار جنكيز خان زعيم المغول « فليساعد الواحد منكم الآخر ، ولنقض على سائر الأجناس ». أما اليهود فهم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذى اختصه العقيدة اليهودية وأن سائر الأجناس أقل شأنا منهم، وأنهم غير جديرين باعتناق اليهودية ، ونظر اليهود إلى سائر الأجناس نظرة احتقار كما أن التلمود يرسم لليهود طرق إبادة الأجناس الأخرى وإيقاع الأذى بهم .

أصبحت دولة المغول تضم عدة قبائل من أجناس مختلفة تختلف فى الأفكار والآمال ، وتشبه فى ذلك دولة إسرائيل الحالية ، فهى دولة تقوم على التناقض والتباين ، إذ تضم شراذم من أجناس ولغات وحضارات مختلفة ، لا تتفق إلا فى الدين اليهودى ، وفى كراهية الأديان والحضارات

الآخرى ، وكما أصبحت دولة المغول خطراً على العالم كله ، فإن إسرائيل والصهيونية تمثل أخطاراً تهدد السلام العالمى والحضارة البشرية .

وكانت علاقة أوربا بالمغول تشبه علاقتهم باليهود الصهيونيين الآن . فقد بدأ جنكيز خان توسعه شرقاً نحو الصين ، ثم اتجه غرباً ، ووضع هو وخلفاؤه من بعده سياسة ترمى إلى اجتياح قارات العالم القديم فى ذلك الحين آسيا وأوروبا وإفريقية . وبدأ المغول توسعهم فى الغرب بالعالم الإسلامى وأدركت أوروبا المصير الذى يتهددها ، وأن المغول ينوون اجتياح القارة الأوروبية والقضاء على معالم الحضارة فيها ، فرأى الأوروبيون توجيه الخطر المغولى إلى الشرق العربى . وكانت الحملات الصليبية الأوروبية تتوالى على العالم العربى ، وهى تصور الأطماع السياسية الأوروبية فى الأقطار العربية . وكان ملك فرنسا لويس التاسع قد استقر فى جزيرة صقلية يستعد للقيام بحملة صليبية جديدة ، ثم علم باقتراب الجيش المغولى من منطقة الشرق الأوسط وأصبح الصدام بين الأوروبيين والمغول وشيكا ، وعلم لويس أن دور أوروبا سيأتى حتما بعد فراغ المغول من الشرق العربى ، ولذا تبادل الطرفان السفارات وعقد مؤتمر فى جزيرة صقلية بين الملك الفرنسى لويس التاسع ومندوبين عن هولا كو ، واتفق الطرفان على اقتسام الشرق العربى ، وأن يتعاونوا جميعاً فى مواجهة العرب المسلمين ، فيقوم المغول باجتياح بلاد العراق ثم الشام ، على أن يوجه لويس التاسع حملته الصليبية إلى مصر ، التى كانت قلب العالم العربى الإسلامى النابض ، لعزل مصر عن سائر القوى العربية الإسلامية . وهو اتفاق اللصوص على اقتسام الغنيمة ، وإنقاذ الأوروبا من خطر المغول .

ودفع الله عن أرض الكنانة خطر الصليبيين ، فقد لقيت حملة لويس التاسع هزائم ساحقة فى فارسكور ، ووقع الملك الفرنسى أسيراً فى أيدى المصريين ، وعرض لويس على الحكومة المصرية الإنسحاب من مصر

مقابل تنازل المصريين عن بيت المقدس . ورفض المصريون هذا العرض ، فبيت المقدس مدينة عربية ، ولابد أن تظل فى أيدى العرب . واضطر لويس التاسع إلى أن ينسحب بدون قيد أو شرط، وبعد أن دفع فديه مالية كبيرة . وهكذا أخفق اتفاق المغول مع الصليبين . وظلت مصر قلعة الإسلام ومنار العروبة . واضطر هولاكو إلى الإسراع باجتياح بلاد العراق ، ونجح فى القضاء على الدولة العباسية والإستيلاء على بغداد .

وهذا يشبه ماحدث لليهود فى قارة أوروبا ، فلقد عاش اليهود فى الدول الاوروبية المختلفة فى عزلة عن سائر الأهالى فسكنوا أحياء خاصة لهم تسمى (الجيتو) ، التى أصبحت بؤراً تدبر فيها المكائد والدسائس ،وأصبح اليهود سوساينخر فى عظام دول أوروبا ، ورأى الاوروبيون الخلاص من هؤلاء اليهود ، فيوجهوهم إلى مكان آخر يتجمعون فيه بعيدا عن القارة الأوروبا فظهرت فكرة الوطن القومى اليهود ، وظهرت اقتراحات كثيرة حول هذا الوطن ، فاقترح البعض الأرجنتين ، واقترح فريق آخر كينيا ، ولكن اليهود أبوا إلا أن يكون هذا الوطن فى أرض فلسطين العربية ، ولا بأس من اغتصابها من أهلها العرب ورأى الاوروبيون التضحية بمصالح شعب فلسطين فى سبيل الخلاص من الخطر اليهودى فى أوروبا .

وإذا قارنا بين أساليب كل من المغول واليهود فى الحرب لوجدنا تشابها كبيراً ، بل وانطباقاً . فقد لجأ الفريقان إلى أساليب الغدر والخيانة والطعن من الخلف ، ولم يحترما قواعد ونظم الحرب المعروفة التى تفرضها الاديان السماوية ، وتتعارف عليها الدول ، بل أصبح الفريقان أعداء للحضارة الإنسانية . وكما اجتاح المغول مدن وقرى العراق والشام ؛ يقتلون النساء والاطفال والشيوخ ، اجتاح اليهود الصهيونيون سنة ١٩٤٨ مدن وقرى فلسطين يرتكبون الفظائع والمذابح ، ويبقرون بطون الحبالى ويقتلون الاطفال . ولاتزالت مذبحة دير ياسين ماثلة للأذهان . كما أقدم المغول على

حرق المساجد والكنائس ودور العلم والكتب فإن الطائرات اليهودية ضربت بقنابلها المساجد والكنائس والمدارس فى فلسطين وفى الاردن وفى وفى منطقة القناة . فقد عمد المغول واليهود على إثارة الرعب فى القلوب والخوف فى النفوس .

وماذا كان مصير المغول ؟ هزيمة ساحقة فى عين جالوت . فقد وصل المغول إلى هذه المدينة . وهى تقع بين نابلس وبيسان ، ورأى المصريون أن يوحدوا جهودهم للقضاء على الخطر المغولى ، فتناسى الامراء المماليك خلافاتهم التقليدية وأصبحوا صفا واحدا . واتحدت القوى الإسلامية فى مصر والشام فى وجه المغول، وأعلن المصريون الجهاد ، ودفعوا الضرائب المتأخرة عليهم طوعاً . وقدم كل مصرى دينارا كضريبة دفاع . وخرج الأمير قطز على رأس الجيش.وهو يصيح (والإسلاماه)يثير بذلك الحماسة فى قلوب جنده للزود على الإسلام والعروبة والمصير العربى ؛ ونجح الجيش الإسلامى فى هزيمة المغول فى موقعة « عين جالوت » هزيمة ساحقة . وأخذت فلول المغول تنسحب من بلاد الشام مدينة بعد أخرى . ودخل العرب المسلمون مدينة دمشق بعد طرد المغول منها فى عيد الفطر ، فاحتفل المسلمون بعيدين عيد الفطر ، وعيد النصر .

وكان من عوامل اخفاق المغول انقسامهم ، فقد مات (منكوخان) خاقان المغول وتنازعت أسرته حول الحكم ، واضطر هولاكو إلى العودة إلى قراقورم عاصمة المغول لحسم الخلاف . وهكذا كان انقسام المغول ، واتحاد العرب المسلمين، من عوامل انتصار الإسلام والعروبة فى عين جالوت وإن مظاهر الإنقسام التى نلمسها بوضوح فى هذه الأيام فى إسرائيل تبشر

بضعفهم وهزيمتهم ، فهناك صراع اجتماعى بين يهود أوروبا ويهود الشرق وصراع سياسى بين الأحزاب والأفراد حول كراسى الحكم .

والمقاييس التاريخية تجعل المؤرخ يؤمن أن مصير اليهود هو مصير المغول ، وبيننا وبين اليهود موقعة عين جالوت أخرى ، وكما زال الخطر المغولى عن الشرق العربى ، سيزول الخطر الصهيونى عن العالم العربى .





٩ - فلسطين فى العصور الإسلامية

كان اسم (فلسطين) لا يطلق إلا على القطر المعروف بهذا الإسم الآن بل كان قاصراً على شعب قديم ولم يطلق على هذا إلا قبل النصف قرن إذ كان القطر المعروف الآن بهذا الإسم يؤلف قسماً من الإمبراطورية العثمانية التى قسمت الوطن العربى إلى ولايات ومتصرفيات دون أن يكون بينها إسم ولاية فلسطين بل كانت هناك متصرفية القدس وهى تابعة لولاية دمشق فلما وقعت الحرب العالمية الأولى وتقرر فى نهايتها وضع الأقطار العربية تحت الانتداب البريطانى واستولت بريطانيا على القسم الجنوبى من سوريا وأطلقت على نصفه العربى اسم فلسطين ، وعلى نصفه الشرقى إسم شرق الأردن .

أما معنى كلمة فلسطين فانها مشتقة من اسم شعب كان يقيم فى تلك البقعة قبل أربعة آلاف سنة وهناك ما يدل على أن هذا الشعب من أصل عربى بينما يعتقد بعض المؤرخين أنه جاء من جزيرة كريت أو من مكان آخر فى حوض البحر الأبيض .

ويذكر التاريخ ان قبائل عربية بدأت تنزح من شبه جزيرة العرب منذ عشرة آلاف سنة وأن هذه القبائل كانت تغزو سوريا والعراق ومصر ، وتستقر فيها وأن معظم الشعوب والدول التى ظهرت فى الأقطار المذكورة كانت نتيجة هذه الغزوات العربية وأن الكنعانيين والفينيقيين والبابليين والكلدانيين والحيثيين والآراميين والآشوريين والهكسوس وغيرهم كانوا جميعاً من القبائل العربية العاربة التى استقرت مع مرور الزمن ولا شك أيضاً فى أن تدمر وغسان ولخم والأنباط ومؤاب وآدوم وغيرها كانت الأخرى عربية .

وكان شعب فلسطين يقيم فى جنوب البلاد وكانت له مدنية وحضارة امتدت حتى كريت وليبيا وآسيا الصغرى واليونان وقبل أن تقوم سفن الفينيقيين بجوب البحار كانت سفن الفلسطينيين تمخر عباب البحار إلى المناطق الواقعة فى الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط وكانت أشهر مدن الفلسطينيين يافا وغزة ومجدل وعسقلان وبيت داجون وبيت جبرين وغيرها وكان هذا الشعب يعبد الإله داجون وقد رسموه على شكل سمكة كبيرة مما يدل على أن هذا الشعب كان يميل إلى أعمال البحر وكان هذا الشعب يعيش عيشه القبائل العربية ولكل قبيلة ملك وكانت أسماء هؤلاء الملوك تدل دلالة واضحة على أنهم عرب .

وقبل أن يأتى الفلسطينيون ويستقرون فى الرقعة الجنوبية من أرض فلسطين كانت هناك قبائل عربية أخرى قد استقرت فى البلاد وأقامت فيها ومنها العمالقة الذين كانوا يستوطنون أطراف سيناء إلى بير سبع والخليل والبابوسيون الذين كانوا يستوطنون القدس وما حولها والكنعانيين الذين كانوا يستولون على جبال السامرة والكرمل إلى لبنان ، كما كانت هناك قبائل أخرى مستقرة فى البلاد .

من العسير الفصل بين تاريخ فلسطين ، وتاريخ سوريا وتاريخ مصر عبر القرون الطويلة إلا فى بعض الأزمنة والعصور القصيرة التى خضعت فيها أقسام من سوريا لغزوات جاءت عليها أحياناً من بابل أو مقدونيا ، أو روما أو فارس ، وكثيراً ما اشتركت سوريا كلها فى الدفاع عن وحدتها أمام غزوات الفاتحين ومطامع الطامعين ، وكثيراً ما خاض أبناء سوريا المعارك جنباً إلى جنب مع إخوانهم سكان الجنوب فى رد العدوان الأجنبى .

(١) دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ٢٠

وهكذا رأينا فلسطين قطراً عربياً أصيلا ، ولا تشوب عروبته شائبة وما تضعف من شأنها فيه حيث كان مهجر من مهاجر الموجات العربية قبل الإسلام . ثم خلدت عروبته بالموجة الإسلامية الكبرى التى جرت بينه وبين الرومان فيه من معارك طاحنة استشهد فيها الألوف من مجاهدى الفتح الأول ، ودفن فى تربته فيمن دفن أبو عبيدة القائد العام لجيوش الفتح الإسلامى وشرحبيل وعكرمة وغيرهم من كبار القواد والصحابة وخلدت صلة قدسيته بالإسلام فى القرآن وما كان من الإسراء النبوى إليه.

رحب سكان الشام العرب بالجيوش العربية الإسلامية ، فقد كانوا على استعداد للاستظلال بظل الراية العربية التى وجدت بينهم دون أن أن ترغم أحداً عنهم على اعتناق الدين الإسلامى وكان معظم هؤلاء السكان من العرب الذين حررتهم الراية العربية من الاستعمار الرومانى ، فأصبح الجميع شعباً واحداً . وانخرط رجال الشام فى الجيوش العربية التى نشرت راياتها فى الشرق والمغــــرب فكان معظم أفراد الجيوش وقوادها من سوريا .

أصبحت أرض فلسطين تابعة للدولة الأموية دون أن تكون هناك حدود بينهما . وكان الخلفاء الأمويين يملكون الضياع والقصور فيها ، ويقضون فصل الشتاء فى مناطقها الدافئة ، فكان مروان بن عبد الملك يقيم أحيانا فى مدينة الرملة البيضاء وكان هشام بن عبد الملك يقيم فى أريحا . والمعروف أن الخلفاء الأمويين هم الذين أقاموا المسجد الأقصى ، وبنوا قبة الصخرة ، وأنشأوا المدن والقصور وعمروا القرى والدساكر .

ظلت فلسطين تشارك أمها سوريا الحوادث والتطورات، فى أيام العباسيين ثم الأيوبيين ثم المماليك ثم العثمانيين ، دون أن يحاول أحد من الفاتحين التفريق بينهما أو شطرهما ، أو إيجاد حدود أو أسماء لكل منطقة من مناطق سوريا ، بل على العكس كان المعروف أنها جميعا تؤلف قطرا واحدا أطلق عليه اسم (بر الشام) .

أصبح لفلسطين دور عظيم فى سجل تاريخ النزاع بين الشرق والغرب أستمر مائتى عام. ودفن فى تربته كذلك عشرات ألوف الشهداء من العرب والمستعربين المسلمين. وانتهى بدحر الغرب عنه وتخليد صفته العربية الإسلامية ومدته القبائل العربية بعد ذلك بموجاتها التى خلدت أسماءها. فى مختلف بقاعه، مثل ديار بنى حسن وبنى مرة وغسانة والحوارث والحارثية وبنى عامر وغيرها، فضلا عن الموجات التى ما زالت تحتفظ بصفتها وطابعها القبيلى البدى والمتوطنة فى أنحاء عديدة منه فى الجنوب والشرق والشمال، وكان رجال فلسطين وشبابها فى إبان إنبثاق الحركة العربية الحديثة فى طليعة الصفوف، وكانوا من الأركان التى قامت عليها هذه الحركة فى مختلف مظاهرها وأدوارها(١).

ظل الحال على هذا المنوال حتى بدأ الإنتداب البريطانى، فوضع الحدود بين فلسطين وجاراتها العربية. لتنفيذ سياسة مرسومة وخطة موضوعة كانت نتائجها تشريد الشعب الفلسطينى من وطنه وإنشاء الدولة الصهيونية فى قسم من فلسطين.

ظلت فلسطين جزءاً من الوطن العربى، إذ نزل بها العرب منذ آلاف المسلمين وأقاموا فيها، وظلوا حتى اليوم يحتفظون بصلات الدم والقرابة التى تربطهم باخوانهم الذين يعيشون فى بقية البلاد العربية.

وتقع فلسطين فى الطرف الجنوبى الغربى من منطقة الهلال الخصيب، وفيها تتمثل جميع الظاهرات الطبيعية والبشرية التى نصادفها فى البلاد

---

(١) دروزه: حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ ص ٢٠

العربية المجاورة ؛ وبصفة خاصة لبنان وسورية ، والمملكة الأردنية ومصر فالسهول الساحلية التى تمتد فى غرب فلسطين ، وتشرف على مياه البحر الأبيض المتوسط ليست إلا امتداداً طبيعياً للسهول فى لبنان وشبه جزيرة سيناء ، وهى وإياها تتشابه فى كل الصفات ، فهى سواحل ضيقة ذات سطح منخفض وتربة خصبة ، وأمطارها شتوية غير كثيرة . والمنطقة الأخدودية المنخفضة التى تمتد فى شرق فلسطين ، ويجرى نهر الأردن فى بعض أجزائها ويشغل البحر الميت بعضها الآخر ، تشبه من جميع الوجوه وادى البقاع الذى يمتد فى لبنان ، بل أنها جزء مكمّل لهذا الوادى ؛ لها نفس الخصائص التى تميزه والظاهرات التى يتصف بها .

والأرض الجبلية التى تفصل المنطقة الأخدودية فى الشرق عن السهول الساحلية فى الغرب ، وهى التى تسمى هضبة الخليل ؛ تعتبر امتداداً طبيعياً لشبه جزيرة سيناء وصحراء النقب ، ولا تختلف عنهما فى شىء ، إلا أنها أكثر ارتفاعا وأغزر أمطارا لهذا كانت رغم فقرها أوفر حظا فى الحياة النباتية والحيوانية ، وأكثر تقدماً فى مظاهر النشاط البشرى .

والظروف المناخية السائدة فى فلسطين هى بعينها الظروف التى تخضع لها بقية البلاد العربية وهى خليط من الخصائص التى يتميز بها مناخ البحر المتوسط والمناخ الصحراوى ، وفيها تتمثل الظاهرات المناخية المختلفة التى يتميز بها هذان الاقليمان .

والعناصر الجنسية التى تعيش فى فلسطين هى بعينها العناصر التى تقيم فى بقية البلاد العربية ، وهم يتألفون من أكثرية عربية وأقلية يهودية ، ولا يختلف نظامهم الاجتماعى والاقتصادى فى فلسطين عنه فى البلاد العربية

الأخرى ؛ فهم يعيشون على الزراعة وتربية الحيوان ويعتمدون على قليل من الصناعة والتجارة .

استولى العثمانيون فى عهد السلطان سليم الأول على بلاد الشام بمافيها فلسطين ، فى سنة ١٥١٦ بعد هزيمة السلطان المملوكى قنصوه الغورى فى موقعة مرج دابق ، وتلا ذلك وقـــوع العالم العربى تحت الحكم العثمانى وازداد تدفق اللاجئين اليهود إلى فلسطين فى أعقاب الاضطهاد الدينى ومحاكم التفتيش فى أسبانيا ، وكان أغلبهم يمتاز بتربية عالية وعلم واسع ؛ فشغلوا أسمى المناصب بين أبناء دينهم ، ومالبثت عشائر المغاربة منهم أن اندمجت مع الطوائف العربية واليهودية ؛ بينما ظل يهود ألمانيا وبولندا على انزوائهم لايختلطون بالآخرين .

ذلك هو التقسيم الطائفى الذى استمر عدة قرون فى فلسطين ، إذ لم يعد يهود بخارى وفارس واليمن إلى أرض صهيون قبل القرن التاسع عشر وتلا هؤلاء يهود وسط أوربا وشرقها فانضموا إلى طائفة الاشكنازيم .

استمر الحكم العثمانى أربعة قرون ؛ تميزت بعدم اكتراث الحكام بالمحكومين وماكانوا يفرضونه من ضرائب باهظة . مما أنزل الفقر بأهل فلسطين عرب ويهود ؛ ودام ذلك الحال إلى أن طرد محمد على الاتراك العثمانيين من فلسطين سنة ١٨٣٢ وحاول بعد ذلك إجراء الإصلاحات ، إلا أن الضرائب ظلت باهظة بقدر ماكانت أيام حكم العثمانيين ؛ فثار عرب فلسطين على سياسته ، واستولوا على القدس ولم يتركوا فيها يهودياً واحداً إلا استحلوا أمواله ، وقمع محمد على ثورة العرب عام ١٨٤٧ ثم حدث زلزال مروع فقضى على نحو ألفين من اليهود .

وقامت الحرب مرة أخرى بين محمد على والسلطان العثمانى فتدخلت الدول الاورية وأعيدت سوريا وفلسطين إلى الحكم العثمانى بعد أن وعد الأتراك باجراء بعض الاصلاحات ومعاملة جميع السكان على قدم المساواة .

ثم استقرت أحوال اليهود بعد انشاء عدة قنصليات أوروبية فكانت كل واحدة منها تمنح حمايتها لرعاياها الأصليين بمقتضى الامتيازات التى منحها العثمانيون لبعض دول أوروبا .





فهرس



رقم الإيداع بدار الكتب ٢٤٥٢ لسنة ١٩٦٩

المطبعة الفنية الحديثة






المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١